لهيب في وسط الثلوج

قصة حياة القديس سيرافيم ساروفسكي

الأنبا إيساك

الأسقف العام لدير الأنبا مكاريوس السكندري

https://coptic-treasures.com/

مكتبة المحبة

لهيب في وسط الثلوج

حياة القديس سيرافيم ساروفسكي

للقمص ويصا السرياني

الكتاب

مقدمة.	القديس سيرافيم والأطفال.
تمهيد.	القديس سيرافيم وراهبات ديفيفو.
اكتشاف مخطوط.	الحمامتان
١– الطريق.	٣– تجلى الروح القدس.
طفولته وشبابه.	نيكولاوس موتوفيلوف.
دير صاروف.	حديث موتوفيلوف مع الأب سيرافيم.
وصول القديس الى الدير.	ان غاية الحياة المسيحية الحقيقية هى اقتناء الروح
السيدة العذراء تشفيه من مرض خطير.	تطبيق مثل العشر عذارى.
سيرافيم الرهب، الشماس، الكاهن.	توضيح لدور الأعمال.
سيرافيم المتوحد.	سؤال عن كيفية اقتناء الروح القدس.
مصادقة القديس للوحوش.	الصلاة وسيلة لاقتناء الروح القدس.
الألف ليلة صلاة.	الأعمال الأخرى غير الصلاة.
ماذا يصنعون؟ انه من جنسنا.. انه منا!!	هل يمكن لأحد أن يبصر الله؟
عودته الى الغابة.	التجلى.
٢– فى خدمة النفوس.	تعاليم القديس سيرافيم الأخيرة لموتوفيلوف.
القديس سيرافيم المرشد الروحى لصاروف.	شاهد آخر.
موهبة الكشف التى كانت عنده.	فى الغابة وحالة الرفعة عن الأرض.
مواهب الشفاء	اضطهادات.
القديس سيرافيم أب الإعتراف	الظهور الثاني عشر لوالدة الاله.
القديس سيرافيم النبى	الأيام الأخيرة.
الجموع فى قلاية الشيخ	اعلان قداسة الأب سيرافيم كنسياً

قداسة البابا المعظم

الأنبا شنودة الثالث

بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

ان حياة القديسين علامات مضيئة فى طريق كل نفس خرجت لتطلب وجه الله .....

ويمتاز القديس سيرافيم الذى من صروف بروسيا بأنه لهيب سماوى اشتعل بالروح، ولا يفصلنا عنه سوى سنوات قليلة ...انه سيدينا نحن أبناء هذا الجيل لأنه كان مخلصا لله ولعمل نعمته وروحه القدوس فيه، أما نحن فقد أكتفينا بالقرءات والعظات دون أن ندخل فى شركة حب عملية مع الله ..أقولها بمرارة .. نحن غير مخلصين لله.

مئات العظات نسمعها وألوف الكتب نقرأها، ولكننا لم ندخل الى المخدع للصلاة بعد، ومازلنا دنيويين نعيش للدنيا، ولم نتب عن خطايانا، وقد ظننا أن الدين هو مجرد كلام يسمع ويقرأ فقط وليس ليعاش .

لم نعرف طريق الصلوات العميقة الطويلة أمام الله.

لم نخاطر بعد فى تداريب صوم ومطانيات واماتة حباً فى المسيح.

تشاغلنا بالتوافه عن قراءة كلمة الله الحية والدخول فى مفاعيلها المحيية للنفس، لذلك جفت قلوبنا عن محبة بعضنا لبعض... وأصبحت الأسرار المقدسة ثقيلة على النفوس.

اننى أنشر حياة هذا القديس ليس لكى أضيف جديدا الى المكتبة الدينية العربية... بل ألتمس من الله أن يحرك قلوب القراء الى طريق التدين العملى .

هذا القديس مكث مصليا ألف ليلة متصلة ... بعدها أضاء وجهه بنور الروح القدس، أما نحن:

- فنريد مواهب بلا بذل...
- ونريد حبا دون التزام من جانبنا...
- ونريد روحا بلا دم...

الله الذى عمل فى قديسيه هو قادر أن يعمل فى أبناء هذا الجيل، بشفاعة والدة الإله القديسة الطاهرة مريم أولا وآخرا لكى يمتلئ ملكوته من مدعويه. له المجد فى كنيسته من الآن والى الأبد آمين .

القمص

ويصا السريانى

الاربعاء ١٢ أمشير سنة ١٦٩١ ش

١٩ فبراير سنة ١٩٧٥م

عيد رئيس الملائكة الجليل ميخائيل

لهيب من وسط الثلوج

حياة القديس سيرافيم ساروفيسكى

(١٧٥٩ -١٨٣٣)

❖ تمهيد:

عالم غريب عجيب ينفتح أمامنا عندما نحاول أن نقترب من حياة قديس... وحياة القديس سيرافيم الذى من روسيا تأتى بنا الى أغرب الحقائق التى نسمعها.

ففى طفولته كانت توجد علامات نعمة الهية حافظة وحارسة له وسط كل مخاطر العالم، وبعد سنين طويلة من الاعتكاف للتدرب على الصلاة والسكون والجهاد الداخلى وصل فيها الى حياة القداسة فتح بابه لكل قادم، واشاع فرح القيامة لكل من يقبله. وكان سلام الله يفيض منه لكل آت الى صاروف: فكان يشفى الامراض ويصلى من أجل الخطاة، وكانوا يرون حول وجهة هالة من النور الباهر، ويسمعونه يخبر عن المستقبل. أحب الأطفال والنفوس البسيطة، وفى غابات صروف أتت الوحوش واكلت من يديه.

كان فى هذه الدنيا كما نحن تماما، ولا يفصلنا عنه سوى قرن من الزمان. فى صورته الطبيعية أو ايقونته يظهر كشيخ منحن بشعر أبيض طويل، وعيناه الزرقاوان اللتان بلون قبة السماء مملوءتان حكمة وتقوى، ينادى كل ضيف له "يافرحى ... المسيح قام يا فرحى".. (يقصد ان الزائر مصدر فرح له، والمسيح قام يقولها طول العام كأنها التحية العادية) ان فرحة القيامة هى النبع الرئيسى لحياته الداخلية، وقد رأى المنازل السماوية مفتوحة أمام عينيه وهو هنا على الأرض.

بدأ نجم القديس يلمع فى سماء الكنيسة الأرثوذكسية فى منتصف القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وقيل عنه أنه إنسان عاش فى النور واحترق ليضئ للجميع. برزت كلماته وقدوته كحقيقة حية تحمل رجاء جديد للعالم الذى قارب حد اليأس فى عصرنا هذا.

ان استعلان الروح القدس الذى اعطى لسيرافيم المتواضع هو كما اعلن القديس نفسه، مقصود به العام أجمع قال القديس: "ان الغاية القصوى من الحياة المسيحية هى الأمتلاء من الروح القدس"

فلنعش فى سيرة هذا القديس العظيم ... بركة شفاعته تكون معنا آمين.

❖ اكتشاف مخطوط...

طرد كبير من الكراسات والأوراق الخاصة يزن بضعة أرطال، مغطى بالأتربة وزبل الحمام والقاذورات من طول بقائه منسيا لسنين طويلة فى سندرة دير ديفيفو.كان ملكا لأرملة ثرى عظيم يسمى نيكولاوس موتوفيلوف وهذا كان قد شفاه الاب سيرافيم عندما كان شابا من حالة كادت تكون ميئوسا منها لشلل كلى سريع الأنتشار... وفى حياة الاب سيرافيم كان موتوفيلوف يدعو نفسه: الخادم الصغير للأب سيرافيم.

كان يقوم بدور ايجابى حى فى تنفيذ ارادة الأب سيرافيم. وبالأخص لمصلحة دير ديفيفو للراهبات.وكان متزوجا من ابنة اخ احدى الراهبات وترك لها مذكراته وملاحظاته حين تنيح اما هى فقد اودعتها ببساطة فى سندرة الدير وعندما احست بدنو اجلها، رأت أن تعطيها لمن عنده شغف بقراءتها، فأعطتها الى المحرر الصحفى سرج نيلوس Serge Nilus فأخذ سرج الأوراق بشغف ولكنه كاد يصاب بخيبة أمل عندما وجد ان معظمها فواتير، ومستندات وحجج عقارات موتوفيلوف أو خطابات قديمة ليس لها أهمية، والاسوأ من ذلك ان نيلوس وجد صعوبة كبيرة فى قراءة خط اليد لموتو فيلوف، وكان على وشك أن يهمل هذا الموضوع و ينساه.

وفى ليلة بدأ يناجى الأب سيرافيم يائسا: "ايها الأب، هل يعقل أنك جعلتنى أجد أوراق خادمك الصغير موتوفيلوف فى ذلك المكان عن غير قصد فى دير ديفيفو كى تدخل عالم النسيان مرة أخرى... ؟" وفى الصباح التالى اكتشف فى كومة المهملات التى فى يده مسودة كتاب ملئ بخط يد موتوفيلوف ظل طول النهار يفك رموزه. زيادة على ذلك وقعت عيناه على جملة قالها الأب سيرافيم: "انا متأكد أن الرب سيساعدك ان تحفظ كل هذه الأشياء فى الذهن، وبالأخص لأن نعمته ليست قاصرة عليك وحدك ولكن عن طريقك للعالم كلة.."

يالهذا الكشف الرائع، ويا لتلك النعمة الجزيلة... هل كان القديس يتنبأ؟ ذلك الأب المتواضع الذى ظل يجاهد روحيا ٧٠ سنة، هل يمكنه أن يشعر بالمستقبل بمثل هذا التأكيد الهادئ انه سيكون إنتشار عالمى للرسالة المودعة فى غابات روسيا الكثيفة عند علمانى صغير لا يعرف قيمتها؟!!

وقد نشر نيلوس المحادثة الشهيرة مع موتوفيلوف فى عدد يوليو سنة ١٩٠٣فى جريدة موسكو جرنال تحت عنوان : "كيف اعلن روح الله ذاته للقديس سيرافيم اثناء حديثه عن عن هدف المسيحية"، وقد امكنه وضع لقب "قديس" لسيرافيم لأنه فى نفس تاريخ نشر المقالة اعترفت الكنيسة الارثوذكسية بقداسته قانونيا..

١- الطريق

❖ طفولته وشبابه...

ولد القديس سيرافيم فى مدينة كيرسك يوم ١٩ يوليو ١٧٥٩ ومدينة كيرسك هى احدى المدن القديمة فى وسط روسيا، مدينة مشمسة تشعرك بالسلام بمنازلها غير العالية، الزاهية الألوان، واسواقها وكنائسها العديدة، وقبابها وابراجها الجميلة. فى ماضيها ذاقت حروبا طاحنة ونكبات مرة فكان الناس يهرعون الى الكنيسة ويصلون امام ايقونة للسيدة العذراء تعرف بالأيقونة المعجزية.

وبروخر الصغير (وهو الأسم المعطى للقديس سيرافيم عند مولده) هو البن الثالث لعائلة موشنن، وله أخ وأخت. كان والده يملك مصنعا للطوب، وكان مقاولا للمبانى موثوقا به. تنيح فى سن الأربعين بعد مولد القديس، وكان آنذاك مشغولا فى بناء كنيسة. أما أرملته المرأة الذكية النشطةالمحسنة المكرسة فواصلت استكمال بناء الكنيسة وتربية الأطفال بعد نياحته..كان بروخر متأثرا بها بعمق وكان طوال حياته يستعيد ذكراها. كانت متعودة أن تأخذ بروخر معها الى موقع العمل، وهناك تفتحت ميوله على معمار الكنيسة. وذات يوم وهى صاعدة سلم البرج مع بروخر وكان له من العمر سبعة سنوات غير مميز للمخاطر، خطى الصبى خطوة طائشة وسقط من فوق الحرف... ولكن هذه السقطة كانت معجزة بلا شك لأنه لم يتأذ!! زاثناء الحادث كان يمر من هناك رجل من رجال الله تنبأ لأم الغلام بأن الله قد منع الكارثة لكى ما يصير بروخر قديسا عظيما...

وعندما بلغ بروخر ١٠ سنوات اضطر أن يتوقف عن الدراسة التى كان متقدما فيها بسبب مرضه الذى الزمه الفراش. وفى احدى الليالى سمعته أمه يتكلم مع شخص ما. فأخبرها ان السيدة العذراء قد ظهرت له ووعدت أن تشفيه.

وبعد أيام قليلة مر موكب يحمل الأيقونة المعجزية للسيدة العذراء بمنزل موشنن، وبسرعة أحضرت أم بروخر طفلها المريض كى يتشفع ويستغيث بأم الله. وفى الحال استعاد الصبى صحته. بعد ذلك أصبح الكتاب المقدس هو كتابه المفضل، والكنيسة هى المكان الذى يذهب اليه أغلب أوقاته المستطاعة. واحيانا كان يتقابل مع رجل الله الذى كان قد تنبأ عنه، وأصبح الأثنين صديقين حميمين. وتحت مظهر عجيب من انكار الذات كان هذا الرجل يخفى مواهب نبوية كان ممكنا ان تجلب له اعجابا فائقا... وكان القديس سيرافيم يبدى أعجابا عظيما بهذا النوع من القداسة...

وعندما بلغ بروخر السابعة عشر من عمره، أشترك مع أخيه الأكبر فى مشروع تجارى، وكان مضطرا أن يقضى معظم النهار فى العمل وسط الحسابات والحديث مع الزبائن فكان بروخر يستيقظ مبكرا جدا لكى يجد وقتا يقضيه فى الصلاة والتأمل فى الكنيسة، وفى المساء كان يستغرق فى قراءة الكتاب المقدس وسير الآباء. ان معرفة بروخر بالأسفار المقدسة الهمته رؤية ما وراء هذا العالم والشوق الى الأبديات. وكان لبروخر تأثير قوى على رفاقه فكان يدعوهم، ومعظمهم من أبناء التجار فى الحى، وفى اثناء ليالى الشتاء الطويلة كان يشرح لهم اجزاء من الكتاب المقدس ويقص عليهم حياة القديسين لاسيما آباء الصحراء. ان الصحارى فى روسيا تختلف عن صحارى مصر، فهى ليست رملية مفتوحة واسعة بل هى غابات شاسعة حيث يبتنى الرهبان لهم أكواخا بعيدا عن الدنيا.. وفى الهدوء والسكون يمارسون حياة الصلاة والعمل وبعد هذا ظهرت بعض الأديرة التى إزدحمت بالرهبان.

احتضن بروخر فى أعماق قلبه فكرة أن يكون راهبا فى تلك الغابات، فقرر أن يبدأ برحلة الى كييف التى يسمى أم بلاد روسيا وهى مشهورة بكنائسها وأديرتها.. وذهب مع خمسة من أصدقائه وهناك أخذ مشورة أن يترهب فى صروف الكائنة على حدود وطنه كيرسك. وبعد عودته أخبر أمه بكل شئ فلم تعترض على رغبة قلبه بل على العكس باركتها وأعطته صليبا نحاسيا –كانت الأسرة تتوارثه– وقد لبسه بروخر طوال حياته. ويوم الرحيل صمم صديقان ممن ذهبوا معه الى كيف أن يرافقاه... وحمل كل واحد منهم بعض المهمات وراء ظهره وعصاه فى يده وسار الثلاثة على الأقدام عبر الطريق الى صاروف.

❖ دير صاروف

ان الهضبة التى بنى عليها دير صاروف محاطة بنهرى ساتس وساروفسكى. كانت فى الماضى قلعة روسية مبنية فى أرض جرداء بلا سكان كموقع خارجى لمنحدرات شاسعة محيطة به. وفى أثناء غارة التاتار سقطت القلعة بيد العدو وجعلوها قلعة للأمير خان...والتنقيب الذى جرى فيما بعد اظهر عظاما، واسلحة، (سهام ورماح وسيوف ودروع وملابس حديدية) لقد شغل التاتار هذه القلعة قرنا من الزمان، وبعد هزيمتهم هجرت القلعة وتركت لعوامل هدم الزمن... فنمت غابة كثيفة فوق الموقع تمرع فيها وحوش مفترسة وأطلق عليها الأهالى القلعة القدية نسبة الى تاريخها القديم.

ظلت القلعة القديمة مهجورة لمدة ٣٠٠ سنة الى أن جاءها ذات يوم أحد الرهبان المتوحدين ليسكن فيها. وكان من وقت لآخ يذهب الى القرية المجاورة ليعظ بالأنجيل للفلاحين. وانتشرت اشاعة بين الأهالى عن وجود كنز مخفى. مدفون فى أرض القلعة القديمة، ولكن الحفر الذى تم فى ذلك الوقت لم يسفر عن شئ سوى ثلاثة صلبان مطمورة... وقد بدأت حياة جديدة فى القلعة القديمة قرب

نهاية القرن السابع عشر حينما التفت مجموعة من الرهبان حول الأب يوحنا المتوحد الذى صار لهم مدبرا...

والقانون المعطى للرهبان كان بسيطا وصارما. ونفس نظام جماعات المسيحيين فى القرن الأول: لايسمح للرهبان بملكية شئ خاص، وهم يكتسبون معيشتهم من عمل اليدين.. فكانوا يشتغلون فى الغابة والحقل، ويقطعون الآخشاب ويحرثون الأرض، ويزرعون القمح، ويدرسون السنابل، يشغلون ماكينة الطحين. وكانو يشتغلون أيضا بالنجارة فيبنون القلالى الخشبية ويصنعون الأدوات البسيطة. هذا الى جانب أعمال النسيج وصناعة الأحذية. وفى الشتاء كانوا يلبسون ملابس من صوف الغنم، وفى الصيف ملابس من كتان خام. وكان الأب يعمل مع الأخوة مظهرا لهم مثال الأتضاع المسيحى وقد أزدادت شهرة الدير وصار معروفا عند كل البلاد المجاورة، وقد عرف الدير بنسكياته وعطفه على الفقراء.. ففى المجاعة التى حدثت سنة ١٧٧٥ فتح الاب كل مخازن الدير، وشارك الفقراء قمح الدير وقد بلغ عدد الذين ترددون على الدير يوميا لأخذ القمح أكثر من الف شخص.

❖ وصول القديس الى الدير..

وفى عيد السيدة العذراء (٢٠ نوفمبر سنة ١٧٧٩) كانت سهرة صلاة فى الدير عندما قرع بروخر باب الدير. وكان الريف الساحر بعزلته وسكونه قد سبى قلب الشاب الصغير وهو فى طريقه الى هناك. فاستقبله الأب باخوميوس (الرئيس الثالث لدير صاروف منذ إنشائه) استقبله بكل فرح، فقد كان يعرف أبوى بروخر اذ كان هو نفسه من عائلة أحد التجار فى كيرسك، وكان مسرورا عندما سمع برغبة الشاب فى الحياةالرهبانية. كان بروخر ابن ١٩ سنة، طويلا قويا، تبدو عليه ملامح الذكاء وخفة الروح، عيناه الزرقاوان تعكسان نقاوة نفسه.. وكانت مسحة الجمال الروحى تكسو ملامحه الدقيقة.

وفى أثناء سنوات التمرين الأولى وأختبار احتماله الأخلاقى والبدنى مر فى أختبارات صعبة، لأنه كان قد اعطى اعمالا كثيرة: فقد كان خبازا، ونجارا، وصانع قلالى، وكان يرسل الى الغابة ويقضى أياما طويلة فى قطع الأشجار. ورغم كل هذا لم يترك عنه الصلاة أبدا، سواء فى الدير أم خارجه أم فى الكنيسة. اسم يسوع كان دائما فى قلبه وعلى شفتيه "يا ربى يسوع ارحمنى أنا الخاطئ" كانت هذه الصلاة المستمرة كنبع مياه حية، تنعش نفسه وتملأها بالفرح. كتب لبعضهم فيما بعد عن هذه السنين: "لو كنت قد رأيتنى فى سنى الأختبار الأولى...كم كنت ممتلئا من الفرح آنذاك.. عندما كان الرهبان يعودون من عملهم اليومى، مرهقين ومتعبين جدا لدرجة أن لا ترتل صلوات المساء فى الكنيسة وقت الخدمة، كنت أحيانا أبدأ بلحن جميل مبهج فكان هذا كافيا لطرح اتعابهم فيبدأون فى الترتيل بنشاط

وحيوية وقلب طيب مسرور.. ان المرح ليس خطية، اننى متأكد من هذا الشعور، وحتى فى الكنيسة.. لأن الله يريد كل أنسان ان يكون فرح القلب، وقال أيضا: "فلنخف من اليأس قبل كل شئ آخر فى الدنيا".

وفى الكنيسة كان دائما أول الحاضرين وآخر المغادرين. رسموه قارئا وعينوه قندلفت (أى المسئول عن أضاءة القناديل والعناية بها الى جانب حراسة الكنيسة عموما وخدمتها). وفى أوقات فراغه استمر فى دراسة الأسفار المقدسة وكتابات اللاهوتيين. قال:"الكلمة الإلهية هى الزاد الذى تتقوت به النفس العطشانه لله" وقد تعود أن يعطى للنفس زادها (اى القراءة الروحية) وهو واقف منتصب أمام الأيقونات كما فى وضع صلاة وهو مستغرق بإنتباه لاستيعاب كلمة الله. تعود أن يقول للمبتدئين الصغار: "ان روح الراهب اليقظ تشبه الحارس الذى من فوق البرج العالى يراقب أورشليم قلبه الداخلى" على انه لم يحثهم على الاطلاق ان يسهروا سهرا زائدا أو يصوموا فوق الطاقة "لأن البدن" كما يقول "يجب أن يكون صديقا ومعينا للنفس والا ربما يحدث انه عندما يضعف الجسم تتعب الروح أيضا معه" وقال ايضا "عندما تستيقظ فى الصباح، بعد تلاوتك الصلوات اكنس قلايتك ونظفها جيدا، وبعد ذلك اشرب مشروبا ساخنا لتدفئ نفسك وجسدك، وما تفعله بعد ذلك طوال يومك افعله بحرص وبتأن وصبر وهى فضيلة لا تكتسب بسهولة، انها ليست من الفضائل التى تنالها دفعة واحدة" وقال ايضا "ان العمل البدنى، وقراءة الأسفار المقدسة يعطيان عقل الأنسان وجسمه طهارة. كان كتابه المفضل هو كتاب القديس مار اسحق (وهو أب ناسك من القرن السابع)، وايضا الفيلوكاليا بتداريب صلاة الهذيذ بترديد اسم يسوع الدائم فى القلب.

❖ السيدة العذراء تشفيه من مرض خطير

رغم عطف القديس وشفقته على الآخرين كان قاسيا على نفسه، يشتغل بكل طاقته... وهكذا أضمحلت صحته بعد سنتين من وصوله الى الدير. لقد أصيب بمرض الأستسقاء لمدة ثلاث سنوات وهو متألم وأخيرا بدت حالته ميئوسا منها.

رفض مساعدة الأطباء وطلب فقط ان يعطى له القربان المقدس، فأقام أب الدير الذى كان يحبه جدا قداسا وصلى الرهبان، ولدهشة الجميع سرعان ما أستعاد الشاب صحته. وتقول القصص المتناقله انه غفى قليلا وهو بين النوم واليقظة، فرأى ملكة السماء مريم العذراء المملؤة مجدا تدخل قلايته وحولها الملائكة ويرافقها الرسولان يوحنا وبطرس. فالتفتت اليهما واشارت الى المتوجع وفاهت بكلمات عجيبة: **انه من جنسنا** وبعكاز فى يدها لمست جانب الراهب، فأنفتحت فيه فتحة، والماء

الذى كان يملئ جسمه قد انسكب خارجا، وقيل أنه بعد ما كبر كان يكشف العلامة التى ظلت باقية فى جنبه.

❖ سيرافيم الراهب، الشماس، الكاهن

عندما بلغ بروخر سن ٢٨ سنة سمح له بأن ينذر نذوره الرهبانية وبعد فترة وجيزة من اللحظة المباركة المقدسة من الحياة، طلب منه أن يعود الى بلده مرة أخرى ليجمع التبرعات لبناء مقصورة صلاة. لم يستطيع أن يرى أمه مرة أخرى لأنها كانت قد تنيحت، ولكن أخاه الذى أصبح الوريث الوحيد لعائلة موشنن أعطاه مبلغا كبيرا يكفى لبناء كنيسة رائعة عند موضع القلاية التى حدثت فيها المعجزة وفى ذكرى هذا الشفاء بنى ملحقا آخر للأستشفاء وقد بنى القديس سيرافيم بنفسه مذبح الكنيسة وأجزاء أخرى. وفى يوم أستلامه الشكل الرهبانى، اعطى اسم سيرافيم وهو أسم احدى المراتب الملائكية، ومعناه باللغة العبرية "الملتهب نارا" انها تعنى الطبيعة الملتهبة التى كانت فى نفس بروخر...

ثم رسم شماسا فخدم فى الكنيسة بغيرة متزايدة. ملائكة وقديسيين رآهم الاب سيرافيم يقدسون بصوره غير منظورة اثناء القداس. وفى يوم خميس العهد نال شرف رؤية السيد المسيح ذاته وهو داخل الكنيسة وترافقه القوات السمائية لقد بارك مجمع الرهبان، والشماس سيرافيم بوجه خاص. وبقى سيرافيم بغير حركة لمدة ثلاث ساعات كمالو كان مصعوقا بصاعقة. لقد حذره رؤساؤه مرات عديدة من خطورة الرؤى، وبدأ الهبان ينظرون اليه بعين الشك يرى هل يتحول الاب سيرافيم المرح،الشاب الأليف المعشر، قاطع الأخشاب القوى، الانسان الذكى ، والعمل الماهر، الى انسان روحانى متصوف. على اى حال لم يعد الأب سيرافيم مبتدئا من الناحية الروحية، لقد عرف جيدا ان الإتضاع هو اساس كل نمو، أنه يعرف تماما انه بقدر اقتراب الانسان الى الله، بقدر احساسه بعدم الأستحقاق، وبقدر احساس الانسان بالجوع الى الله اكثر.

قد سجل الدير معجزة أخرى فى سجلاته حدثت ايضا على يدي الاب سيرافيم حينما كان شماسا: كان هناك جوع فى الأرض، وفى أحد الأيام أرسل الشماس سيرافيم الى مخزن الغلال بالدير ليجمع كل ما تبقى من حبوب. وأسم يسوع لا يفارق شفتيه جذب الشماس الصغير مزلاج الباب ولشدة دهشته وجد أن المخزن ممتلئ قمحا. واضاف التقرير بانه منذ ذلك اليوم والدير لا ينقصه مؤونة ما..

كان رئيس الدير الأب باخوميوس ياخذ معه القديس سيرافيم فى زياراته الرعوية وجولاته فى البلدان المجاورة، وفى احد الأيام زارا مجمعا صغيرا للراهبات فى قرية ديفيفو (تبعد حوالى ٨ ميل عن صاروف) وكانت الأم الرئيسة الكسندرا راقدة على فراش مرضها. وكان للراهبة العجوز حديث طويل مع

الأب صاروف فكانت تترجاه أن لا يهمل الراهبات اللائى معها، واعطته ايضا مبلغا من المال للصرف على معيشتهن من بعدها. وقد وعد الأب باخوميوس انه طوال استمتاعه بالصحة فهو سيعتنى بهن وبعد ذلك سيكون على الأب سيرافيم ان يتعهدهن من بعده حينئذ وجهت الأم الكسندرا توسلها الى الأب سيرافيم الذى وعدها أمام الله أنه سيعمل الواجب ... وبعد فترة وجيزة علم الرهبان أن الأم الرئيسة تنيحت، وأن اليتيمات اصبحن فى عهدة ديرصاروف. وبعد أربعة سنوات تنيح الأب باخوميوس تاركا العناية بمجمع ديفيفو الأب سيرافيم.

فى ذلك الوقت رسم الأب سيرافيم كاهنا وأخذ لقب الراهب القس، وفى السنة الأولى لرسامته كاهنا كان يعمل قداسا كل يوم واعتاد التناول من الجسد المقدس والدم الكريم وأصبح له التناول مصدرا لا ينضب من الفرح والتعزية والقوة الروحية. بعد ذلك لم يكف عن تشجيع المؤمنين على الاكثار من التناول حاثا الكهنة أن يسهلوا لهم أخذ الأسرار المقدسة.. قال "عظيمة هى النعمة المأخوذة عن طريق الأسرار المقدسة لأن لها قوة أن تنقى وتجدد كل أنسان حتى ولو كانت خطيته عظيمة".

بعد وفاة الأب باخوميوس الذى أحبه الأب سيرافيم حبا بنويا خالصا، استأذن القديس من الأب الرئيس الجديد (الأب أشعيا) بان يعتزل فى الغابة لكى يعيش حياة التوحد...

❖ المتوحد...

فى عشية عيد العذراء ايضا (٢٠ نوفمبر ١٧٩٤) وبعد ١٦سنة من وصوله الى الدير، خرج الأب سيرافيم لخبرة روحية جديدة، خرج الى كوخ صغير كان قد ابتناه لنفسه فى الغابة حين كان يعمل فى تقطيع الخشب هناك. وكان مرض قدميه هو العقبة فى حصوله على إذن التوحد بسهولة، ولكنه لم يكن متطلعا الى الراحة. ورغبته فى الوحدة هى لكى يكون بمفرده مع الله. لقد عبر عن مشاعره حين خروجه للوحدة بقوله: "كنت كأنى محمولا بقوة فائقة، كما لو لم أكن بعد أعيش على الأرض، كانت نفسى ممتلئة تماما من الفرح". اعتقد القديس سيرافيم أن صحراء سيلفان العظيمة ستمكن روحه من أن تصعد بأكثر حرية الى خالقها. كانت غابات صروف تضم متوحدين آخرين هنا وهناك.. وكان بين الواحد ورفيقه ميل أو أكثر وكان بعضهم يعرف الأب سيرافيم، فكانت صداقتهم ونصائحهم عونا روحيا ومعنويا للقديس فى بداية توحده.. وكان مكان توحده كوخا خشبيا بسيطا يقع تحت شجرة صنوبر ضخمة على الشاطئ المنحدر أسفل نهر ساروفكا الصغير، وكان اساسه عبارة عن منضدة، وكتلة خشبية تستعمل ككرسى، وايقونة فى الركن وبلا سرير. ان تفاصيل هذه الفترة من حياته لم تكشف الا فيما بعد، حينما

تحدث بها جيرانه المتوحدون، والاب سيرافيم نفسه لاصدقائه المقربين: كان يقرأ الانجيل كل يوم، لم ينفصل أطلاقا عن الكتاب المقدس الذى كان يحمله بأستمرار فى كيس، قال: "ان عقل الانسان عليه أن يسبح (يعوم) فى الأسفار الألهية... الروح لا تنتعش وحدها بكلمة الله بل حتى الجسد نفسه يزهو وينتعش بها، ولكى يحيا حياة الرب يسوع المسيح بالروح على الأرض اطلق اسماء من الكتاب المقدس على الأماكن التى أختارها للصلاة: كانت له الناصرة التى كان يفرح عندها بترتيل تحية الملاك للسيدة العذراء، وكان هناك مغارة سماها بيت لحم كان يذهب اليها ليعبد الطفل الألهى.. كان يصعد لقمة أحد الجبال ليقرأ الموعظة على الجبل وكان هناك واد بجوار مجرى مائى كان يلذ له ان يتأمل الرب يسوع وهو يتحدث الى تلاميذه. كان له جبل حرمون، وجثيمانى، والغلغثة... وهكذا اقتربت له فلسطين البعيدة.. وبدت وحياة المخلص حقيقية واقعية مجسمة امامه.

وماذا كان يفعل المتوحد أيضا؟ كان يصلى، كان يشتغل حسب قانون القديس باخوميوس الذى انتشر فى القرن الرابع. كان الأب سيرافيم ينهض فى منتصف الليل ليبدأ اليوم بصلوات باكر، تتوالى بعدها مزامير السواعى، حتى صلوات الستار، وقبل الذهاب الى النوم كان يصلى صلوات المساء الطويلة مصحوبه بسجدات ومطنيات لا حصر لها.. كان يفلح فى حديقة للخضروات، وكان يربى نحل، ويعمل كقاطع أخشاب. وفى أيام الآحاد والأعياد كان يذهب الى كنيسة الدير للتناول من الأسرار الألهية. وعندما ينتهى القداس كان الرهبان يمسكون به بعض الوقت معهم لأنه كان محدثا بارعا، وكانت تعبيراته خفيفة الروح تبعث البهجة للقلب. وهذه بعض النصائح التى أعطاها الأب سيرافيم فى ذلك الوقت:

+ ان أردت أن ترتب منازل سكنى النفس الداخلية، عليك أن تعد الوسائل اللازمة حتى يمكن للمهندس السمائى أن يبدأ عمله، ان يسوع هو باب البيت (يو ١٠: ٧) وهو بانيه لأن بانى الكل هو الله، وهو نفسه الساكن فيه، وحارسه. لكى ما يكون المسكن منيرا بالنور السماوى يجب أن يكون هناك نوافذ التى هى حواسنا الخمسة.

+ عندما تصلى أغلق عينيك دقيقة وحاول أن تركز قواك الروحية، أن تعبت ارفع عينيك الى الايقونة أو الى شمعة مضيئة. التركيز فى الصلاة بهذه الطريقة سوف يحدث فى القلب دفئا روحيا آتيا من المسيح نفسه ويملأ كل كيان الأنسان بالسلام والفرح.

+ بحسب درجة اضطرام قلبك بهذه الطريقة باسم يسوع المحبوب سيمتلئ قلبك بمحبته وسيصبح أسم يسوع نبع فرح وسلام لك.

+ الله نار يضرم القلب كلهيب، فاذا شعرنا بالبرودة فى قلوبنا فهذا يعنى ان العدو اقترب منا لأن الشيطان برودة، وعلينا حينئذ أن نصلى الى الرب حتى يأتى ويلقى ناره فى قلوبنا للمحبة نحوه ونحو القريب لأن ازاء وجه الله الكلى الدفء يهرب الشيطان وتنقشع برودته من القلب.

+ اذا كنت لا تعرف الله يستحيل عليك أن تحبه ولن يمكنك أن تحبه الا اذا رأيته. ولكن لا تستطيع أن تراه الا اذا عرفته.

+ بمداومة حفظ القلب تتولد فيه النقاوة التى بها يرى الله. حسب شهادة الرب "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله".

+ حينما ينشغل الانسان داخليا بالتأمل فى النور الأبدى يكون عقله نقيا لا يشوبه تصورات الأشياء المحسوسة ويكون مبتلعا بتأمل ذلك الجمال الفائق غير المخلوق وينسى كل متعلقات الحواس ولا يرغب فى ان يتطلع لشئ حتى الى نفسه. ويتوق ان يختفى عن كل الأنظار حتى لا يحرم من الله.

+ فى كل شئ ينبغى أن نشكر الله ونسلم ذواتنا لأرادته وعلينا أيضا أن نقدم له كل أفكارنا وحديثنا و أعمالنا محاولين أن نستخدم كل شئ لمسرته الصالحة.

+ ليت قلبنا يضطرم بنار وحياتنا تضئ كنور أمام الرب الاله كشمعة موقدة أمام أيقونته المقدسة.

+ ان العيون التى افاضت دموع الرحمة والشفقة قد استؤهلت ان تشرق عليها شمس البر لتضئ لها الحياة.

+ اذا اضعفنا الجسد وانهكناه لدرجة انحطاط الروح ايضا فإن ذلك يعتبر عدم افراز ورعونة حتى ولو كنا نسعى للحصول على الفضيلة.

وكان الأب سيرافيم عندما يعود الى كوخه بالصحراء يحمل نصيبه من الخبز للأسبوع كله.

❖ مصادقة القديس للوحوش

فى الصحراء يتحول الأنسان الى شكل كونى، واذ يواجه الجوهر فهو يعمل من أجل نقاوته الشخصية وتجليه. وفى نفس الوقت يحمل اثقال و خطايا البشر وينتظر التحرر كما يقول معلمنا بولس "لأن الخليقة نفسها ايضا ستعتق من عبودية الفساد الى حرية مجد أولاد الله. فاننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معا الى الآن" (رو٨: ٢١، ٢٢).

هذا هو واجب المتوحد، وهو لايعمل باطلا. الحيوانات تفهمه. ففى سوريا ومصر كان لآباء الصحراء أصدقاء من السباع والضباع والحيات كالقديس مكاريوس الأسكندرى والقديس جيروم والقديس أولا غ السبعى والأنبا برسوم العريان...

أما القديس سيرافيم فكان له دب صار اليفا مثل كلب، وكان ينام تحت رجليه ويطيع أوامره. وكان الأب سيرافيم يخرج من قلايته بعد صلوات باكر فيجتمع حوله سكان الغابة: دببة وذئاب وثعالب وارانب برية وسحالى وحيات وطيور بلا عدد، أتوا ليتناولوا طعام أفطارهم. سأله شاهد عيان مرة: "كيف تدبر خبزا لكل هؤلاء؟ "فكان يجيب باستغراب:"كيف اتدبر.. لا أعرف، ولكن الله يعرف.. وعلى العموم يوجد دائما ما يكفى!!".

سجل الذى كتب سيرة القديس قصة شاهدين– احداهما الراهبة ماترونا – رأيا القديس وفى صحبته دب كبير. ففى أحد الأيام بينما كانت ماترونا فى طريقها بالقرب من كوخ القديس رأت رأت الشيخ جالسا على كتلة من الخشب يطعم دبا كبيرا، وكان هذا المنظر باعثا لها أن تجرى بعيدا، لكن القديس سيرافيم ابتسم حين رأى فزعها وضرب الدب ضربة خفيفة فاختفى فى الحال وسط الغابة الكثيفة وأقتربت الراهبة مطمئنة، فدعاها القديس أن تأخذ مكانا بجانبه على كتلة الخشب وما كان اعظم فزعها حينما رأت الدب يظهر ثانية. لقد أتى وأستلقى عند قدمى القديس سيرافيم، فقال لها القديس لا تخافى ، أنه لن يؤذيك أبدا!...لعلك تذكرين قصة القديس جيروم حينما روض أسدا فى الصحراء. سوف ترين هنا أيضا أن الحوش تستطيع أن تكون وديعة مطيعة.. ودفع القديس الراهبة أن تعطى قطعة من الخبز للدب، وبينما كانت ماترونا تصارع خوفها التفتت الى القديس واندهشت اذ وجدت وجهه يلمع بنور سماوى كوجه ملاك، وحوله هالة من السلام والصفاء والفرح. حينئذ اعطت قطعة الخبز للدب الذى تناولها منها كما لو كان حملا صغيرا. وكما أوصاها القديس،لم تقص الأخت ماترونا هذه القصة إلا بعد نياحته.

ويخبر كتاب فالنتين عن حادثة أخرى لراهبة رأت الدب مع القديس، فأمره أن يذهب ويبحث عن شهد فى الغابة.. فأختفى الدب ثم عاد ومعه أقراص من عسل النحل، فأعطاه القديس للراهبة... وتعلق الكاتبة بأن جو القداسة الذى عاش فيه الأب سيرافيم له سلطان أن يغير طبيعة الأشياء، والحيوانات المفترسة أصبحت أليفة كما كان الحال قبل السقوط.

❖ الألف ليلة صلاة

حياة الوحدة تدخل الراهب فى مخاطر لايمكنه ان يفلت منها الا بالصلاة والتداريب النسكية. أثناء هذه السنين من العزلة التامة كان الأب سيرافيم يحس أحيانا أن نفسه ممسوكة بالضيق، فى وقت كانت تقبض عليه كآبة وغم طوال ليالى الشتاء الطويلة، ومرات أخرى يفعم قلبه بحزن يعذب قلبه، لايعرف له مصدر... اثناء ساعات الصلب هذه كان يشعر أنه متروك من الله كلية...والواقع انها محاربات الشيطان الذى كان يحاول ان يملك نفسه.

ان العمل هكذا فى سلام وحب لتجلى الكون وتقديسه هو عمل ضد خطط الشيطان. وقبل ان يبدأ ربنايسوع رسالته لفداء جنس البشر، واجه العدو فى الصحراء. كذلك كل آباء الصحراء كان عليهم ان يحتملوا كل هجماته.. والقديس سيرافيم لم يكن ليستثنى، فقد كانت محارباته مع أرواح الشر طويلة ومؤلمة.

سأله موتوفيلوف مرة: هل الشيطان موجود فعلا؟ فأجابه القديس ساخرا: علموك أيه يابنى فى المدارس اللى رحتها... طبعا موجود. متكلما عن خبرة– وكيف حالهم الآن؟– انهم أدنياء...فى البداية حاولت الشياطين أن تخيفه خارج الغابة. ثم اغرقوا ذهنه بأفكار الشكوك و التجاديف. فكان يضاعف صلواته وأصوامه كى يصد هذه الهجمات عنه، عالما بقول الرب: ان الصوم والصلاة هما اللذان يخرجان الشياطين(مر٩:٢٩). ومثل الصليب الذى أعطته اياه امه، هكذا ربط فى ظهره صليبا آخر من حديد لأنه قال: من اختار الصحراء عليه ان يشعر فى نفسه انه مصلوب باستمرار... وكان الأب سيرافيم يراعى القانون الرهبانى بدقة، ومزامير السواعى من باكر الى الستار، ولكى يقضى الليل كله فى الصلاة أصلح له صخرة للسجود عليها فى قلب الصحراء مرددا بلا توقف الكلمات التى وضعها يسوع ذاته على فم العشار "اللهم أرحمنى أنا الخاطئ" (لو١٨:٣٣) وكان يواصل هذه الصلاة فى وقت النهار أيضا مستخدما ركنا داخليا فى كوخه كان قد اغلقه كى لا يزعجه أى داع طائش.. ولمدة الف ليلة و الف يوم عاش كالقديسين العموديين (القديس سمعان العمودى، والقديس لوقا العمودى) متضرعا الى الرب، ونحو نهاية هذه الفترة خمدت قوى الشر ونزل سلام إلهى فى نفس المتوحد. وطوال هذه الثلاث سنوات لم يكن يرى فى الدير، وكان الرهبان يتعجبون احيانا كيف يتدبر بالنسبة للطعام؟ وقد كشف السر فيما بعد عندما أخبر الأب سيرافيم اختا من دير ديفيفو عن نبات صغير ينموا فى الغابات، وقال لها أنه جيد للأكل وانه كان غذاءه لفترة ثلاث سنوات، كان أثنائها يجففه ويحفظه لفصل الشتاء ويأكله صازجا صيفا. ان صلواته وأصوامه اجبرت قوات الشر غلى الهزيمة وجذبت اليه نعمة الله...

❖ فى ايدى اللصوص..

حركت قوات الشر ثلاثة من الفلاحين ليبحثوا عن المال فى مكان المتوحد. وامام عنفهم كان يمكن للشيخ ان يقاوم مدافعا عن نفسه وكان فى أوج صحته البدنية ولم يتعد الخمسين وكانت بلطته فى متناول يده. ولكنه فكر فى المسيح الذى لم يكن يقاوم الشر، فترك البلطة وكتف يديه حول صدره وقال بهدؤ: افعلوا ما أتيتم لتفعلوه...ولكن واحد من الأشقياء تناول البلطة وضرب بها المتوحد على رأسه، فسقط مغشيا عليه فركلوه وربطوه بحبل وتركوه مكفيا على وجهه ليموت... ثم عبث اللصوص فى الكوخ ليبحثوا عن الكنز المخفى فكان كل ما وجدوه هو بضع ثمار من البطاطس موضوعة فى ركن، وفجأة أخذتهم رعدة مما فعلوا فهربوا. ولما قبض عليهم فيما بعد أصر الأب سيرافيم أن لا يعاقبوا... ومغفرة الخطايا دائما بالنسبة للروس هى محك المسيحية الحقيقية، ولكن على أى حال أعلن الله دينونته على هؤلاء الأشقياء اذ شبت نار فى القرية التى كانوا يسكنون فيها وحرقت بيوتهم وأتلفت كل ممتلكاتهم. وبعد فترة وجيزة، أفاق الأب وحاول أن يفك قيوده، وظل يزحف الى ان وصل الى الدير. كان يبدو أن الأب سيرافيم مشرفا على الموت.. ولم يستطع أن يأكل أو ينام وسط آلام فظيعة، وقد شخص الاطباء الحالة بأنها كسر فى الجمجمة، وكسر فى الضلوع، مع جروح وكدمات عديدة. وبينما هم يهمسون مع بعضهم حول سرير القديس بالتعبيرات اللاتينية، اغمض الأب سيرافيم عينيه وغفى... ومرة أخرى جاءت ام الله المملؤة مجدا، مرتدية ثوبها الملوكى، ودخلت قلايته يصاحبها ايضا الرسولان يوحنا وبطرس ونظرت الى الأطباء وقالت:

❖ ماذا يصنعون؟...انه من جنسنا..انه منا!!

بعدها فتح القديس عينيه ، فوجدها قد ذهبت.. ولكنه تشجع وامتلأ قوة، وقام من على فراش مرضه، ورفض مساعدة الأطباء، قام ومشى بضع بضع خطوات فى حجرته، وعند المساء كان قادرا ان يأكل قليلا من الطعام..!

❖ عودته الى الغابة

استعاد الأب سيرافيم صحته، وبعد بضعة شهور رجع الى الغابة. لم يعد قاطع الأخشاب القوى الذى كان معروفا بقوته الجسدية، ولكنه بعد الخمسين أصبح شيخا محطما بأطراف كسيحة تحدث ألما، متوكئا على عكازه وعلى بلطته.

ولكى يستعيد سلامه الداخلى الذى افتقده بسبب الحادث، فرض الأب سيرافيم على نفسه الصمت الكامل وكان يقول: "لا يوجد تدريب روحى يمكن مقارنته بالصمت للراغبين فى الوصول الى السلام الداخلى". فرغم تحذير الرئيس ان يعود الى البرية مرة اخرى، عاد الى كوخه فى الغابة.. لقد كانت احدى الجهادات النسكية فى انتظاره: لقد دخل فى السكوت التام. يصلى بلا كلمات وهذه قمة صلوات الهذيذ...كتب مار اسحق "ان صمت الهادئ صلاة لان افكاره ذاتها هى نبضات الهية، وحركات العقل النقى هى أصوات ساكنة ترتل سريا مزامير لغير المنظور "...ان الروح القدس يملك على مثل هذا الإنسان، وهو الذى يصلى فى سكون قلبه. وبعدما استغرق الأب سيرافيم فى هذا النوع من الصلاة العميقة، لم يعد يتكلم مع اى شخص، لم يعد يذهب الى الدير ولا حتى الى الكنيسة. واذا صادف شخصا فى الغابة كان يسجد على الأرض ولا يرفع رأسه ولا يقوم الا بعد أنصراف ذلك الشخص. أحضروا له طعامه مرة من الدير ووضعوه على عتبة بابه ولكنهم بعد أسبوع وجدوا الطعام كما هو لم يمس لقد اصبح الدير مقلقا، فالأب الجديد رجل عنيف ذو أفق ضيق يسمع لدسائس الرهبان واسمه نيوفنت، وهو غريب من الروحيات... أراد أن يجبره على ترك وحدته، فأمره أن يحضر القداس كل يوم أحد.. وقال أنه اذا كانت قدماه الكسيحتان لا تقدران ان تحملاه الستة كيلو مترات (وهى المسافة بين الكوخ والدير) فليعد ويعيش داخل أسوار الدير. ولكن الأب سيرافيم كان قد تقدم فى حياة البرية، ولم يعد راهبا ديريا. وقد غير ملابسه السوداء بملابس بيضاء وفى قدمه قبقابا من لحاء الشجر كالفلاحين، وكان يقول متجنبا المصادمات: "الطاعة بالنسبة للراهب هى أولا وقبل كل شئ من أهم الفضائل "هكذا علم الأب سيرافيم وهكذا تصرف. ولكنه ظل ابنا مطيعا للكنيسة...

فقد عقد الرئيس مجمعا مع رهبانه وقرروا استدعاء الأب سيرافيم الى الدير كأنذار نهائى، ودون أن ينطق بكلمة اطاع المتوحد وترك كوخه المحبب اليه وسط الغابة، حيث كان يعيش فيه متأملا ومصليا، وعاد الى الدير، وبعد أن قابل الرئيس، اغلق على نفسه فى القلاية التى كانت معدة له ولمدة خمسة سنوات من سنة ١٨١٠ الى سنة ١٨١٥ حبس نفسه فى قلايته صامتا. كانت القلاية مكانا ضيقا، فى مدخلها جزع شجرة منحوتة على شكل نعش، ولم يستطع حتى الراهب الذى كان يحضر له الطعام أن يرى وجهه– وكان طعامه سلطانية بها فتة من خبز الشعير– لأنه كان يغطى وجهه بفوطة.

ماذا كان تدبيره فى سنوات حبسه هذه ...؟ قراءة البشائر يوميا (انجيل متى يوم الأثنين، مرقس الثلاثاء لوقا الأربعاء، يوحنا الخميس وكانت خدمة الصلبوت ليوم الجمعة والسبت للرؤيا والأحد للقيامة

وجميع القديسين) كان يصلى، ورأى رؤى كثيرة... وذات مرة أصعد الى السماء مثل القديس بولس ليرى المنازل التى يعدها الله لمحبيه.

ولكن صداعا مخيفا بسبب قلة الحركة وقلة الهواء اجبره ان يصلى من أجل الحرية. فظهرت له مريم العذراء فى رؤيا وامرته ان يفتح بابه للناس ويعود الى الغابة..

٢- في خدمة النفوس

❖ القديس سيرافيم المرشد الروحى لصاروف

أن كلمة (ستاردز) التى تطلق على القديس سيرافيم هى كلمة روسية بمعنى شيخ مدبر روحى، فهى لقب يطلق على الراهب الذى نال من الروح مواهب الأفراز والحكمة والمشورة فى الكنيسة الشرقية.

وما ان انتشر الخبر أن الأب سيرافيم قد فتح باب قلايته، حتى هرعت جماهير الناس الى صاروف لزيارة هذا الأب ... ماذا كانوا يبصرون؟ عجوزا نحيفا بملابس بيضاء، كل ما فيه قد نشف، بملامح دقيقة صارمة، وعيون زرقاء حنونة كانت له ابتسامة طفل، وكان يقابل زواره بفرح ويدعوهم : "يابهجتى" ودائما يضيف تحية القيامة: المسيح قام.

لقد عاش فى الدير منذ شبابه، وبعد ذلك توحد فى كوخ فى الغابة، وأخيرا فى قلايته الضيقة. ودارت الدنيا بكل تغيراتها: حكام وثورات وحروب.. لقد غزا نابليون أوروبا فى ذلك الوقت. هل شعر بذلك.. ؟ يقول الناس أن صلاته انقذت البلاد... ماذا كان فية يجذب الجماهير التى أتت بأعداد ضخمة الى صاروف؟ ماذا تعلم فى وحدته ليكون مفيدا للمتألمين الكادحين فى الدنيا؟ هو نفسه يخبرنا ويقول: املأ قلبك سلاما... وألوف حولك سيخلصون..

لقد غلب الأب سيرافيم شهوات جسده، وصار ممتلئا بالروح، يشع بثمار الروح على كل من حوله: محبة، فرح، سلام.. التى تكلم عنها القديس بولس (غل٥:٢٢) حيث الناس فى كل زمان ومكان ومن كل طبقات المجتمع فى شديد الحاجة اليها. والتى لا يمكن أن تعطيها أى امكانيات ارضية ولا أحد من المعلمين الاجتماعيين أو النفسيين.

كان يقرأ أفكار الناس ويشعر بمستقبلهم وبلطف يريهم طريقهم فى الحياة. شفى كل أنينهم الروحى والمادى. واعتبر اليأس هو الخطية الكبرى، أما أن يمتلئ القلب من المخاوف بدلا من انتظار رحمة الله ففى هذا إبادة للحياة المسيحية.

لم يعظ أبدا، أنما كان هو ذاته مثالا، ونموذجا حيا.

وكان يقول بمزيج من الاتضاع والصفاء الطبيعى والسلطان الحازم الذى كان له:

من السهل أن تعظ عظات جميلة كمن يلقى حجارة من القمة الى اسفل الجبل، أما أن تحيا بما تعظ به فهو من الصعوبة كمن يحمل حجارة من اسفل الجبل ويصعد بها الى أعلى القمة.

وكان أول من أستقبلهم إثنان: رجل وزوجته أتيا ليأخذا بركته. ان السنين التى قضاها سيرافيم فى قلب الغابة لم تجعله غريبا عن الدنيا بل على العكس عندما بدأ يعيش لله فقط قربه الحب الإلهى للناس، وعندما لم يعد يعيش بعد للعالم أتى اليه العالم بمتاعبه. أعطى القديس سيرافيم موهبة خاصة هى فهم قلوب البشر.

ورغما عن كونه كان صلبا وعنيفا مع نفسه كان رقيقا رحيما مع الأخرين، قال مرة لناس ينتحبون على خطاياهم "على الأنسان أن يشفق على ذاته. على الأنسان أن يتحمل ويتقبل أخطاءه ونقائصه كما يتحمل ويتقبل خطايا الأخرين"

"فى الحياة الروحية لا ينبغى أن نعمل شيئا فوق طاقتنا" هذه هى المشورة التى كان يعطيها لكل أحد.

"أعط الروح الأشياء الخاصة بالروح، وللبدن الأشياء الخاصة بالبدن لكى يحمل البدن الروح عبر طريق الخلاص"...هكذا كانت تعاليمه.

❖ موهبة الكشف التى كانت عنده:

ذات يوم جاءت فتاتان لتستشيرا الشيخ، وكانت الفتاة الكبرى تشتاق الى حياة التكريس ولكن نظرا لمعارضة والديها ذهبت لتستطلع رأى الشيخ، وأما الفتاة الصغرى فكانت مخطوبة. فوجه الشيخ كلامه للكبرى قائلا "أن حياة التكريس ليست للجميع، ستتزوجين وتكونين فى غاية السعادة" ودهشت الأخرى عند سماعها منه أن ترتيبات زواجها سوف لا تتحقق وأنها ستأخذ الثوب الرهبانى، فرجعت الأثنتين حزينتين تشعران بخيبة الأمل، ولكن نبؤة الشيخ تحققت فأصبحت الكبرى زوجة سعيدة ودخلت الصغرى ديرا للراهبات.

قال له أحد الزوار بعد مشاهدة حوار بين الشيخ وأحد الشباب "ان النفس البشرية مفتوحة أمامك ككتاب تقرأه"

فأجاب القديس باتضاع "أوه.. لا.. لا، ان قلوب البشر مفتوحة لله وحده لأنها عمق لا قرار له". قال له الزائر "فكيف اذن ياأبتاه استطعت أن تخبر هذا الشاب بكل ما فعله دون أن تسأله سؤالا واحدا؟" فقال القديس بعد فترة صمت "اننى لا أقول لأولئك الآتين الى الا ما يخبرنى به الله، لأقوله لهم، وأول فكر يجئ الى اعتبره كرسالة من الله، أما أن بحثت عن الاجابة بنفسى فاننى أخطئ على الفور. وأضاف القديس :كالحديد فى النار هكذا أضع أرادتى بين يدى الله ولا أتكلم حتى أشعر أن

الكلمة معطاة لى". بهذا شرح الأب سيرافيم بنفسه موهبة بصيرة النفس هذه، المعطاة له بواسطة النعمة الالهية ..

❖ مواهب الشفاء:

عندما بدأ القديس سيرافيم فى استقبال الناس فى قلايته وقد أنوا من أماكن بعيدة، كان يقدم لهم قطعا من البقسماط كان يحتفظ بها فى قلايته، وأحيانا كان يرشم الناس الآتين اليه من زيت القنديل المشتعل باستمرار أمام أيقونة والدة الاله.

وذات يوم – فى سنة ١٨٢٢– أحضر للأب سيرافيم رجل مريض اسمه ميخائيل ملنتروف، كان يعانى من آلام فظيعة فى ساقيه وبصعوبة يستطيع الوقوف، وما أن رأى الرجل القديس سيرافيم خارجا من قلايته حتى ترك أيدى خدمه الذين كانوا يسندونه وسقط عند قدمى القديس راجيا الشفاء بتوسل، فتفرس فيه القديس بعينين نافذتين وسأله هل تؤمن بالله؟ وعندما أجاب ميخائيل مانتروف بالإيجاب أخبره الأب أن الإيمان المسيحى أعطاه القوة ليحصل على كل شئ من الله، وإن آمن هو بثبات قاطع سيشفى حتما، وأمر الرجل أن تفك ضمادات ساقيه وسكب عليهما زيتا وأعطاه بعضا من البقسماط ليأكل. قال له برقة: أنت أول من شفيته. واذا أحس مانتروف أن العافية بدأت تعود الى ساقيه فورا قدم الشكر للأب على شفائه ولكن الأب لم يدعه يواصل الكلام بقوله "ليس لى أنا سيرافيم ينسب الشفاء بل لله وحده وهو كلى القدرة وهو الذى أعطاك الشفاء. وكان عرفان مانتروف بالجميل بلا حدود، فقد نذر الفقر ووزع ممتلكاته وعتق عبيده وأعطى نصيبا كبيرا من ممتاكاته لجماعة اليتامى فى دفيفو.

وبعدشفاء مانتروف توالت أشفية أخرى كثيرة فى صاروف، فقد. أحضروا الى الأب المرضى والمفلوجين والذين بهم أرواح نجسة والصم والعمى. وهكذا رأينا الذين عليهم ارواح نجسة وجدوا أنفسهم قد عتقوا من الشر. الأعمى أستعاد بصره والاصم استعاد سمعه... اهتزت كل البلاد المحيطة، أما الأب فلم ينسب هذه الأشفية الى موهبته الخاصة بل بكل قوة نسبها الى ايمانه بالمسيح ووصيته المعطاة للكنيسة "اشفوا مرضى اخرجوا شياطين" (مت١٠:٨) .

وعندما راجعه بعض الرهبان أن الزيت الذى يستعمله للمرضى ليس زيتا أجريت عليه صلاة التقديس (مسحة المرضى) أجاب الأب: "نحن نقرأ عن الرسل أنهم كانوا يدهنون بزيت باسم الرب فكان المرضى يبرأون، فمن نتبع إذا أن كنا لا نتبع الرسل؟!" . وكان الأب لايعتبر الكهنوت الذى أخذه وظيفة مفردة بل هو دعة تضم كل هبات المسيح لكنيسته ككل. وكان القديس سيرافيم يعتبر أن هذه المواهب هى مظاهر مختلفة لكهنوته، وكان يعرف أن له فى داخله القوة لاظهارها.

❖ القديس سيرافيم أب الاعتراف

لم يكن الذين يعانون من أوجاع بدنية فقط هم الذين كانوا يذهبون الى ساروف لمقابلة الأب سيرافيم بل أيضا الذين أصيبوا بأوجاع روحية معنوية. والناس دائما فى حاجة أن يتحرروا من الخطايا التى يحملونها فى داخلهم.

وكان من النادر أن يسمع الأب سيرافيم اعترافا بنفسه، وغالبا ما كان يرسل زائره المعترف للأب المعين لأخذ اعترافات دير صاروف أو ديفيفو. ولكنه عندما كان يقبل تائبين فعلا، كان يخترق قلوب البشر، وكان لا يهمه كيف تستخدم الرذائل أو الفضائل بل كان ينظر الى الانسان ككل فى سقطاته ونهضاته. قال واحد من المعترفين عليه "أن الأب تكلم عن كل حياتى كما لو كانت مكشوفة أمامه". وكان يهمه أولا مشاعر الأتضاع فى قلب المعترف والندامة على الخطية.. ولم يكن يدين أحدا، وبهذا الأتجاه نحو التائب حقق الحكمة الأرثوذكسية فى هذا السر التى تعبر عنه كلمات الكاهن "المسيح حاضر يا ابنى بصورة غير مرئية لكى يتلقى اعترافاتك... أنا فقط شاهد لكى أشهد أمامه بكل ما ستقوله". وكثيرا ما كان الأب سيرافيم يذكر الكهنة الحديثين غير المختبرين عن هذا الأتجاه بقوله : "تذكر يا أبى أنك مجرد شاهد، والله وحده هو الديان". واذ كان ممتلئا بالأشفاق على آلام البشر كان ينفذ الى اسرار النفس عن طريق حنانه البالغ آخذا خطايا الأخرين على نفسه، وغالبا كان يركع بجوار المعترف التائب سائلا اياه أن يصلى الى المخلص من أجل خطاياه. هذه هى صورة القديس سيرافيم أب الاعتراف (فى الكنيسة الأرثوذكسية يقف المعترف و أب الاعتراف أمام أيقونة موضوعة على حامل، ثم يركع المعترف فى نهاية الاعتراف لينال صلاة التحليل من أب الاعتراف. فهو كأب اعتراف يعطى حلا، وكخاطئ تائب يركع المعترف..)

❖ القديس سيرافيم النبي

القديس سيرافيم خادم الروح القدس، كان نبيا بالتأكيد...ووظيفة النبى مزدوجة فهو يحس ويرى المستقبل ويخبر به، والنبى أيضا يعلن الحق ويجسده.

ويمكن أن يوضع فى مرتبة أنبياء العهد القديم الذين جاهدوا مع الله ليحصلوا على البر لشعبهم، كذلك كان رسالة الهية وسط هذا الشعب. ويلاحظ ان القديسين العظام يولدون فى أوقات الضيق لكى يعلموا الناس الارادة الالهية. فى زمان القديس سيرافيم كانت روسيا تموج بأفكار مضطربة فى الدين والسياسة، تنتشر و تتصارع مع بعضها – وكانت هذه الأفكار نابعة من الشعب الروسى نفسه، كما

كانت دخيلة عليه من الخارج–. لقد حزن القديس سيرافيم وتنهد قائلا: "نحن نضل على الأرض طريق الخلاص، ونجلب على انفسنا غضب الله، وأحيانا كانت تمر أمام عينيه بعض المناظر الرؤيوية.. واكثر من مرة تحدث عن الزمان الذى سيقوم فيه ضد المسيح، وتنزع الصلبان من فوق الكنائس وتخرب الأديرة: "سيكون زمان ضيق لم يكن مثله منذ بداية العالم، ان الملائكة انفسهم سيزدحم بهم الوقت ليجمعوا النفوس من على الأرض". تكلم هكذا وكان وجهه الهادئ يمتلئ حزنا ويرتسم عليه تعبير الألم والدموع.

لقد جاهد من أجل شعبه بصلوات ملتهبة صاعدة من الأعماق، مثل تلك الشموع التى تحترق ليلا ونهارا من أجل الأحياء والأموات أمام الأيقونة فى قلايته. واحيانا كان يغلق على نفسه القلاية أياما طويلة كى يتضرع الى الله من أجل خلاص نفس خاطئة. قال ان الشيطان كان ينتقم لنفسه منه بلكمات موجعة وكان التعبير اللفظى الذى اعطاه الأب سيرافيم لهذه الخبرة النسكية السرية هو: "الألم الذى اشعر به كنار مرئية". وعندما كانت صلوات القديس ترن فى وسط الأرواح الطاهرة كان جسده يبدو كمن فقدخصائصه المادية، وكثير من الشهود أقروا أنهم رأوا القديس فى حالة رفعة فى تلك الأوقات وأقدامه غير ملامسة للأرض.

كانت هناك أمثلة عديدة لنجاة بلده فى أوقات الكوارث: لقد أسكت عواصف، وسبق فأخبر بحلول مجاعات وحث الناس أن يخزنوا بعضا من القمح، وأوقف أوبئة ومخاطر عدة كانت تهدد بلده، وسبق فرأى حرب القرم و حوادث أخرى حدثت فعلا.. لقد كان القديس سيرافيم هو الملاك الحارس لشعبه، ولهيب صلاته كان كعمود نار فى الصحراء ليلا.

❖ الجموع فى قلاية الشيخ

ان اجلال الشعب الروسى للقديس بدأ من قصر القيصر حتى اطراف سيبريا. وهناك قصة منقولة عن القدماء المعاصرين للقديس ان الامبراطور الكسندر الأول حضر لأستشارة الأب سيرافيم، وبناء على مشورة الأب ترك العاهل عرشه ليتوب عن خطاياه تحي اسم (فيدركوزفيتش) متسربلا بعباءة سائح مسكين. وقد ذاعت ايضا كلمات زوجة الأمبراطور نيقولاوس الأول حينما قالت وهى على فراش المرض "اننى أعرف أن صلوات ذلك العجوز النحيف قد ساعدتنى لأموت ميتة حسنة مرضية عند الله".

ان كان احترام رجال البلاط للقديس بكل هذا المقدار الكبير فكم يكون التكريم أقوى عند عامة الشعب الذين تزاحموا ليلا ونهارا عند قلاية القديس سيرافيم، مشاهدين العاجئب والاشفية التى كانت تحدث أمام عيونهم. لقد أغتاظ رئيس دير صاروف فقال بغضب: "كثيرون يأتون ليزوروا الأب سيرافيم،

لدرجة اننا لا نقدر ان نغلق بوابة الدير حتى منتصف الليل" جماهير غفيرة باستمرار. وقد قدر السواح الذين يعبرون الطريق المؤدى الى صاروف بألفى سائح فى يوم واحد وكان طريق (ارزاماس) لا يخلوا من الغادى والرائح من المسافرين. ويمكنك أن ترى عرنات الأغنياء الفخمة، المريحة، وعربات الفلاحين الفقراء. وكثيرون من السياح كانوا يأتون على الأقدام آتين من بعيد، سائرين أحيانا لمدة أسبوع. وعندما يصلون الى صاروف يتدفقون على الدير فى بيت الضيافة، أو الفنادق المحيطة، أو مساكن الفلاحين. ينامون فى الصيف تحت النجوم، واحيانا ينتظرون اياما قبل ان يتمكنوا من الوصول الى الأب سيرافيم– وعند الفجر عندما تبدأ الأجراس تدق لصلاة باكر، يفتح الباب الكبير، ويتدفق السياح على فناء الدير مثل موج البحر يجيشون داخل حوائط الدير البيضاء... يالتباين فى اللهجات والعادات هناك! كل واحد كان منتظراً خروج الشيخ، وكانوا يشرئبون ليروه حين يظهر. وعندما يخرج لابسا عباءته البيضاء بوجه سماوى يشع نورا داخليا، كل واحد يندفع الى الأمام كى يقبله هلم... تعال... اتفضل، هكذا كان يقول، ويبدأ الطابور: ويكشف الجسم البشرى الهائل كل آلامه وبؤسه "تعالى يا أبنتى.. تعال "يقولها الشيخ لامرأة حين يراها تتدافع بمنكبيها و الجمهور لا يمكنها فتفقد اتزانها "ان زوجك مريض عليك أن تعودى اليه بسرعة" وبعد ان يعطيها ملء قبضة يده من البسكويت يصرفها بلطف. وفى أيام الأب سيرافيم كانت هناك تحركات واسعة لكتائب الجيش لظروف الحرب، ونظرا لأن صاروف لم تكن بعيدة عن الطريق الحربى الرئيسى، فكان جنود كثيرين مع ضباطهم يأتون الى الدير لأخذ بركة الأب. وفى اثناء غارات الاتراك والبولنديين، وحرب نابليون، كانت توجد أعداد هائلة من الناس يعتقدون من الصميم أنهم قد نجوا بصلوات القديس سيرافيم.. أن رجال الحكومة أيضا اتوا ليبصروا الشيخ... وهناك قصة عن مسئول كبير اتى وقرع على باب قلاية الأب سيرافيم لبضعة أيام، وقال الأب ليس لديه وقت ليراه... وبعد عدة أيام من الأنتظار باطلا عرف هذا المسئول ان كلمات الشيخ الجافة له كانت نقدا لطريقته هو فى استقبال المتظلمين لديه عندما كان يقول لهم انه مشغول وليس لديه وقت.

وكان الأب سيرافيم يعرف مسبقا ان كان احد الآتين اليه قد اتى لمجرد حب الاستطلاع، ظانا فى نفسه انه أكثر علما من الشيخ فكان القديس يقول له باتضاع حقيقي "من أنا المسكين الحقير، بجوار عظمتك أنت وذكائك..." كان ارشاد القديس سيرافيم غاية فى البساطة "اعط خبزا للجائع وشرابا للعطشان، افعل ما هو مستقيم، وداوم على السلام والصفاء الداخلى".

وكانت قلاية القديس سيرافيم بالدير صغيرة، وكان لها نافذتان تطلان على فناء الدير وكانتا دائما مغلقتين.. تضيئها شموع وقنديل زيت أمام الأيقونة الوحيدة فى حجرته وهى لوالدة الإله.. وكان يوقد

الشموع دائما فى ذكرى الاحياء والأموات.. اما أثاث القلاية فيتكون من كرسى وكنبة للزوار وكتلة خشبية كمنضدة، وشوال على الأرض كان بمثابة السرير، وكان احيانا ينام فى نعش كان قد نحته يوما من جزع الشجر كان قد أعده لجنازته ووضعه على عتبة باب قلايته لكى يتذكر باستمرار ساعة موته.

ورغم ان الجموع كانت كثيرة جدا حول الشيخ الا انه كان يوصل لكل واحد ما كان ضروريا له. يشجع واحد، ويرشد ويعلم الثانى، ويشفى الثالث، يبارك المتزوجين حديثا، وينبئ بميلاد طفل لزوجين صغيرين، يقدم نصيحة للاطفال، ويرى مسبقا أقتراب موت انسان وينذره بأن يعد نفسه. يومه كله كان مشغول بخدمة النفوس، واحتفظ بالليل فقط لنفسه. وذات يوم، اتاه راهب مسن كان صديقا قديما له لم يره منذ ٢٠ سنة، وكان على هذا الراهب ان ينتظر حتى الليل لكى يجد لحظة مناسبة للجلوس مع القديس، وعندما سمح له أخيرا أن يأتى الى قلايته قال له "انهم المرضى الذين عوقونى عنك، وكان على أن اقابلهم أولا، والآن يبقى لنا الليل حيث نستطيع أن نتكلم بحرية..." لقد أعطى اليوم كله للمرضى، ورغم ذلك اعطى القديس سيرافيم ليل الراحة لصديق قديم.

❖ القديس سيرافيم والأطفال

كثيرون من الذين زاروا القديس فى طفولتهم، دونوا مذكراتهم. وهذه قصة كتبت فى احد المجلات الدورية توضح كيف ان ابنة أحد الكتاب الروسيين هو (ن. اكساكوف) ،قابلت الشيخ لأول مرة اثناء سياحة الى صاروف مع أبويها.. قالت: حين وصلنا الدير اخبرنا الرئيس ان الأب سيرافيم فى الصحراء فى ذاك الوقت ثم قال اننى اشك ان كان سيقابلكم ام لا، ولكن ربما يقابلكم من أجل الأطفال الصغار الذين احضرتموهم معكم... على أى حال أرسلوا الأطفال أمامكم لأن الأب بمجرد ان يسمعهم قادمين سيخرج حتما. وقد نفذ آباؤنا نصيحته وسرنا نحن الأطفال أمام المجموعة وشيئا فشيئا، اصبحت الغابة أكثر إظلاما،فتملكنا الخوف... ولكن ونحن فى هذه الحالة نفذت بعض من اشعة الشمس من بين الشجر المتشابكة، فتشجعنا مرة أخرى ووجدنا ممرا فى الغبة مكتسيا بنور الشمس فاندفعنا خلاله وكنا خمسة أطفال ومجموعة الكبار وراءنا... وحالا، رأينا عجوز نحيف يضرب بفاسه بمهارة جزع شجرة شربين وهو يقطع الأغصان السفلية النامية وقد أستطالت عند قاعدة الشجرة، وحين سمع صوتنا أرهف سمعه ثم أختبأ فى الاجمة، ولكنه عاد عندما لم يعد يسمع صوتنا وكلنا كتمنا أنفسنا ولاحظنا انه يخفى نفسه بمهارة وسط أغصان الشجر بدأنا نحن الخمسة ننادى معا: أبونا سيرافيم... أبونا سيرافيم... وعند سماعه اصواتنا نحن الأطفال لم يستطع الأب سيرافيم ان يبقى فى مخبأه، وظهرت رأسه البيضاء من وسط اوراق الشجر ووضع اصبعه على شفتيه كمن يطلب منا ان لا نظهره للكبار. واتى نحونا عبر

الافرع الأرضية وجلس على الأرض وأشار الينا أن نأتى اليه، وكانت صغيرتنا ليزا هى الأولى التى القت نفسها على رقبته وخبأت وجهها الوردى فى شاله البالى الذى يلفه على رأسه ويغطى به كتفيه "يا كنوزى الصغار...يا كنوزى الصغار" هكذا ردد الشيخ بكل حنان وضمنا الى قلبه واحدا واحدا. وعندما أرغم الأب سيرافيم رغم كل شئ أن يخرج ليقابل الجموع الآتية نحوه، رقدنا على الحشيش نراقبه ببهجة. وفى طريق عودتنا قالت ليزة الصغيرة لأختها، وهى الأولى التى احتضنها الأب سيرافيم: " هل تعلمين ان الأب سيرافيم يظهر فقط انه عجوز، ولكنى اعتقد انه طفل مثلى ومثلك"

وهكذا كانت تستجيب قلوب الأطفال النقية لقلب القديس النقى. وكان حب الشيخ للأطفال ملحوظا جدا...وكان يكفى ان يقرع طفل بابه حتى يفتح على الفور، مهما كان مشغولا. وكان يحدثهم عن تفاصيل ما اكملوه من دراسة، وكان يوجههم الى المفروض عليهم، ويرى مستقبلهم وكان يقول أحيانا لطفل ابن ست سنوات أو سبع "ان الله قد أختارك يا ابنى".. اطفال كثيرون شفوا بصلاته: فهذا طفل مشلول محمولا على ذراعى والديه التعيسين وصار جسمه الصغير الذابل جلدا على عظم. لقد أتى والداه على الأقدام من مسافة بعيدة على أمل أن تحدث معجزة.. وكانا ينتظران دورهما فى بصبر نافذ فناء الدير، ولكن القديس يترك كل شئ ويأتى الى الطفل، ويحمله بين ذراعيه ويقبله ثم يعيده الى والديه قائلا: "ان نعمة الرب ستخلصه" ويتحول الى المرضى الآخرين. وقد عرف فيما بعد ان الطفل قد شفى فعلا... وذاك طفل اعمى ينفخ القديس فى عينيه ويشعر الطفل ان الغشاوة التى تغطى عينيه قد اضمحلت، وبعد فترة يعود اليه بصره تماما.. لاحظ ولد ان أحد الجالسين عند الأب سيرافيم كان منظره مضحكا للغاية لدرجة ان الطفل لم يستطع أن يضبط نفسه من الضحك. فأخرجته أمه خارجا ولكنه عاد عندما أنتهت المقابلة. وكان الأب سيرافيم وحده فقال له "انت ياصديقى... حسنا... حسنا... ان التوبة تمحو كل الذنوب" ، ثم فتح الأنجيل وأجلس الولد بجواره حينما كان يقرأ الآيات من الأصحاح السابع للقديس متى: لا تدينوا لكى لا تدانوا... وكان له عمق الأثر على نفس الصبى ومن وقتها تكونت عند الطفل عادة قراءة اصحاح من الأنجيل يوميا. وكان اشفاق الشيخ على الأطفال يمنعه ان يطلبهم بما هو فوق طاقتهم. وكان يحب أن يراهم سعداء وعلى سجيتهم.. ان نيكولاوس موتوفيلوف طفل فى السادسة، تعب من طول حديث أمه مع الأب سيرافيم، وبدأ يجرى ويلعب فى قلاية الشيخ ولكن أمه زجرته وأوقفته عن اللعب، فتدخل الشيخ قائلا "اتركى الطفل فى لعبه البرئ انه يلعب مع ملاكه الحارس، استمر فى اللعب ياأبنى ربنا يباركك.." هذه هى الذكريات التى حفظتها الأطفال طوال حياتهم عن الأب سيرافيم.

❖ القديس سيرافيم وراهبات ديفيفو..

بمجرد ان ترك القديس سيرافيم وحدته، هرع اليه شباب كثيرون يطلبون ارشاداته ومعونته الروحية. وراهبات دير ديفيفو كن الأوائل الائى بدأ معهن القديس ليقودهن فى حياة الرهبنة، وكان يقول لهن، "ان البتولية المكرسة أعمق بكثير من مجرد رفض الزواج، إنها حفظ النفس نقية ومكرسة للمسيح، مثل هذه تكون عروسا للمسيح، ومختارة من الروح القدس".

بعد نياحة الأم الكسندرا، اذداد عدد الراهبات الى ٥٠ راهبة، وقد وجد دير صاروف أنه من الصعب عليه ان يمدهن بالاحتياجات المادية، وكان هناك اتفاق غير رسمى بين دير صاروف ورهبانية ديفيفو: ان يصرف الأول على الثانى فى كل احتياجاته من كمية المال المتروكة من الام الكسندرا، فى نظير ان تمد الاخوات دير صاروف بالكتان المغزول بايدهن ولكن بعد فترة رأى الرهبان انهم غير قادرين على تحمل العبء، وانه ليس لائقا بدير رجال ان يهتم بمجمع نساء، وقليلا قليلا ترك دير البنات ليدبر نفسه بنفسه. وكانت الأم الرءيسة أمرأة صارمة جدا، وقاست الاخوات الصغيرات من ادارتها لهن. وأحس الأب سيرافيم ايضا – وهو ملتزم بالوعد الذى وعده للام الكسندرا– أن من واجبه أن يحمى ويدبر اولئك اللاتى وجدن ان القانون الرهبانى صعب جدا. ففضل الشيخ الأخوات المبتدئات عن القديمات واعطى لهن قانونا رهبانيا قال انه تسلمه من والدة الاله نفسها ونظم من المبتدئات رهبانية جديدة بجوار القديمة أطلق عليها مجمع الطاحونة، (لأنه فى وسط المبانى الجديدة ساعد الأب فى بناء طاحونة تمد الراهبات الصغيرات بالمؤن، لانهن اصبحن بلا سند من دير صاروف). وأعطاهن قانونا جديدا أقل حدة وأكثر موائمة مع قدراتهن.

اخبرتنى احدى الراهبات عن دعوتها قفالت: "كان عمرى ٥ سنوات عندما جئت الى صاروف لأول مرة، لم يكن هناك زحام فى ذلك اليوم، وعندما تلونا الصلاة التى كنا نقولها عادة ونحن ذاهبون الى قلاية أبونا سيرافيم، فتح الباب على الفور وقال كأنه يحيينى "اهلا...اهلا يا صغيرتى" ورغم كونه لم يرانى من قبل كان يبدو كما لو كان فى انتظارى ويعرفنى. ولأنى كنت قصيرة عن أن أصل الى الأيقونة التى للعذراء حملنى بنفسه حتى أتمكن من ان اقبلها.. وقال لى: "لقد أختارتك العذراء" وعندما بلغت الثانية عشر قال للذين أحضرونى: "انه وقت لتخطبوا للفتاة فعند ذهابها للكنيسة فى الآحاد والأعياد يجب ان تلبس فستانا وحذاء ابيضان" وكل وقت اذهب فيه الى صاروف بعد ذلك كان يحدثنى عن الخطوبة. وبعد سن السادسة عشر كلمنى بصراحة ان ادخل الدير.

هكذا كان القديس سيرافيم يقرأ دعوة كل طفل صغير.. الدعوة المكتوبة فى أعماق قلبه، وهكذا كان يعد لهم الطريق. وأصبح دير الراهبات ديرا مثاليا رئيسته– كما يقول الشيخ– هى العذراء مريم ذاتها التى كانت تعطى أوامرها للشيخ وكما قال انه لم يتخذ اى تنظيمات للراهبات الا ويكون قد استلمها برؤى عديدة كان يراها. لقد اشتغل سنوات عدة لأعداد المواد اللازمة لبناء طاحونة، وقلالى وعنابر وكنيسة. واختار ميخائيل مانتروف، الذى كان قد شفاه، معاونا له فى تدبير الدير ماديا. وأختار الأب سيرافيم يوم عيد التجلى لتدشين الكنيسة لكى يعطى رمزا لحياة التجلى الكائنة فى المجمع الرهبانى الصغير. كان الشيخ يراعى كل تفاصيل احتياجات الراهبات المعيشية المادية، ونظام أعمالهن، وقانون صلاتهن. وكل الهدايا التى قبلها الشيخ من زواره سلمها لدير الراهبات: شموع، عسل، نبيذ للتقديس، زيت، كتان، بخور، وكان يرسل اليهن القمح والنبات والزهور"القمح يغذيهن والزهور تبهج قلوبهن" ومعظم الراهبات اتين من القرى المجاورة وكان يقول لهن: "اعلم ان حياتكن صعبة وطعامكن خشن، ولكن العذراء اختارتكن يابناتى الصغيرات"

وكانت المبتدئات الصغيرات تعملن فى الحقول: يحرثن الأرض ويقطعن الأشجار فى الغابة ويعتنين بالحديقة.. وكان الشيخ يقول ان: "بناتى الصغيرات يشتغلن كالنحل" ولكن الشئ الذى يعجبه بالأكثر هو شدة عنايتهن بالكنيسة وتنظيفها حتى لم يعد فيها بقعة واحدة... قال: "ان كنتن لم تعملن شيئا سوى تنظيف بيت الله فانكن قد قمتن بعمل أعظم من اى عمل آخر"

لقد بنيت كنيسة المخلص فى طرف قرية ديفيفو، وارتفع برج اجراسها الفضى نحو السماء فوق الحقول والغابات البعيدة وعلى الطرف الآخر من الموقع كانت الطاحونة بين صفين من قلالى الراهبات، وكان الموقع محاطا بخندق ضيق عميق، وسد. وقال القديس سيرافيم "هذا الخندق قد حفرته ملكة السماء وهذا السد هو مقر اختارته العذراء مريم غير الدنسة لها" وقد اكمل الشيخ والأخوات حفر الخندق ليكون الموقع معزولا تماما.

وكان حى ديفيفو قبل القديس سيرافيم مشهورا بمناجم الفحم، وفرق العمال الذين سكنوه... وقد عرف الحى السرقات والدعارة وكل النتائج الوخيمة للسكر. وكان الشيخ يسأل احدهم: "هل تعرف ماذا كانت هذه المدينة؟ لقد كانت مأوى للشيطان آنذاك، والان انت ترى كيف حولها الله، وطرد جيوش ابليس من هذا الأماكن"

وكان مجمع الراهبات هو العمل الذى توج به القديس الذى كان يطلق على نفسه: الخادم الصغير لأم الله، الذى كان ينفذ بأمانة أوامر ملكة السماء لذلك استطاع ان يوجد الحصن الشامخ من الصلوات

فى وسط عالم فاسد مضطرب.. ملكوت الله لا يأتى بمراقبة، هكذا تخبرنا كلمة الله، لأن "ها ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧ : ٢١ ، ٢٢).

وفكرة ملكوت الله هذه قد تكونت فى أعماق قلب القديس سيرافيم، ولم يتجسد الملكوت فيه فقط بل شارك فيه راهباته اللائى وهن تحت الأرشاد الساهر لمرشدهم تجلت حياتهن على نفس صورة أم الرب القديسة مريم العذراء كلية الطهر.

❖ الحمامتان:

كان لميخائيل مانتروف أخت فى السابعة عشر من عمرها وكانت مخطوبة، وبعد معجزة شفاء أخيها تعودت هيلين الذهاب الى صاروف وتأثر قلبها و تغير هناك. وبدون ابداء الأسباب فسخت الخطوبة وكرست نفسها للعناية بجدها الذى كان على فراش الموت. وأعلن لها الله فى رؤيا بأن تكون راهبة. ومضت ثلاث سنوات قبل أن يعطيها الأب سيرافيم موافقته على دخولها الدير وكان يقول: "اصبرى قليلا، لاتتعجلى" وعندما أختبر طريقة تفكيرها وعقليتها سمح لها أخيرا أن تذهب الى ديفيفو وتستعد لأخذ الشكل الرهبانى "انك تريدين أن تكونى أسدا فى حياة تكريسك ولكن هذا طريق صعب ليس لك. أنتن البنات تشبهن الحمام، وأنت ستكونين حمامة مثل راهباتى الصغيرات. ذكرى نفسك دائما باجابة العذراء "هوذا أنا أمة الرب ليكن لى كقولك".

باشرت هيلين فى ديفيفو حياة الصمت والصلاة والعمل. ووضع الأب سيرافيم فيها ثقته وأسند اليها عمل السكرتارية وأيضا قندلفت الكنيسة، بالاضافة الى مهمة تعليم المبتدئات، اذ قد تلقت معرفة جيدة، وكل شئ كان يرسله اليها أخوها أو صديقاتها كانت توزعه على الأخوات بالدير سرا. وأحضرت معها الى ديفيفو خادمة، لا تتركها، وعندما أصيبت هذه الفتاة بالسل أخذتها هيلين الى قلايتها الخاصة رغم معارضة الراهبات، وتركت لها سريرها وخدمتها بكل اشفاق، ولكن الفتاة لم تعش طويلا. وكان لموتها صدى حزن عميق على هيلين، وبعد شغل بالنهار وسهر بالليل أحست أن صحتها تخونها، وكانت تتمنى أن تموت قبل الأب سيرافيم الذى بدأت قواه تضمحل وتذبل يوما بعد يوم كما هى رأت وكانت تقول للأخوات ."ياه..أريد فقط أن أموت قبله".

وفى هذا الوقت بالذات جاءتها أخبار مزعجة عن اخيها ميكل الذى كان ذاهبا فى مهمة الى مكان ملئ بالمستنقعات فأصيب بالملاريا وقال لها الشيخ "أن اصابة اخيك خطيرة. وأنت تعرفين حاجة الدير اليه.. لقد فكرت فيك.. أترغبين أن تموتى بدلا عنه؟ "فقالت هيلين بهدوء" لقد أطعتك باستمرار ياأبى" ، ولكن بعد دقيقة واحدة :ياأبتاه اننى أرتعب من الموت. فأجاب الأب سيرافيم" ماذا يرعبك فى

الموت؟ .. الموت بالنسبة لنا فرح أبدى"ثم رشها بماء مقدس وودعها الى الباب. وعند عودتها أحست هيلين أن قواها تفارقها وذهبت الى الفراش ولم تقم منه مرة أخرى. كان موتها ملفتا للنظر، أخذت المناولة وسلمت على الأخوات سائلة السماح والمغفرة من واحدة، وسألت أن يعددنها للدفن.

وفى اللحظة الأخيرة قبل تركها العالم أعلنت أنها رأت الرب كنور لا يعبر عنه، وعندما أخبرت الأخوات الأب سيرافيم عن موتها بدموع، قال الشيخ لهن "ايتها .. الساذجات انتن لا تفهمن شيئاَ! آه لو كنتن رأيتن نفسها طائرة الى السماء كالحمامة !!" وهكذا أطلق القديس هذه الحمامة لتطير اذ قد فتح لها باب القفص بنفسه.

أما الحمامة الثانية التى انطلقت من دير ديفيفو فكانت مارى فيليوكوف الصغيرة. وهذه عندما كانت فى سن ١٣ سنة تبعت أختها الكبرى ودخلت الدير فى ديفيفو، واذن لها الشيخ بالبقاء. وكانت طفلة هادئة ورقيقة، حياتها كلها للصلاة والتأمل، قالت عنها الأخوات "ان لها طبيعة ملائكية، الأتضاع والطاعة هما فضيلتاها المميزتان". مرة سألتها أختها عن أسم الراهب الذى قابلاه عند الأب سيرافيم، فأجابت الطفلة بسذاجة أنها انها لم تأخذ بالها أطلاقا من الناس الذين تقابلهم عند الأب سيرافيم الذى أخبرها أن تحفظ نظرها الى اسفل ولاجل هذا هى تلبس القبعة بطريقة خاصة، لا تجعلها ترى إلا الأرض التى تحت قدمها فقط. لقد أحب الأب سيرافيم مارى الصغيرة جدا، وأهداها قبعة خضراء مشغولة بخيوط مذهبة كانت تلبسها وهى ذاهبة الى الكنيسة، وأعطاها مسبحة تعلمها ان تصلى، وقد أدخلها هو بنفسه الى طرق التصوف والتأمل الالهى. كانت مارى تعمل مع الأخوات الأخريات فى الحقول،وكانت تساعد البنائين فى حمل طوب البناء للكنيسة.. وبصلوات دائمة كانت ترفع نفسها الملتهبة الى الله. ولكن تلك النار المضطرمة فى داخلها كانت لها قوة التهام هذا الكائن النادر الذى كان صغيرا جدا على الحياة النسكية التى عاشتها. فبعد ٦ سنوات من العمل والصلاة، وهى فى سن التاسعة عشر، بدأت مارى فى الذبول فى هدؤ كما عاشت، اذ كانت قد نضجت كحزمة فى أوان الحصاد. وقد عمل لها الأب سيرافيم نعشها بنفسه، وارسل عباءته الرهبانية لتوى جثمان مارى، ووضعوا سبحة الأب سيرافيم فى يديها المضمومتين..

٣- تجلى الروح القدس

❖ نيكولاوس موتوفيلوف

الى هذا الثرى الصغير، يرجع الفضل فى نشر حديث هام له مع الأب سيرافيم، اذ دونها فى مذكراته التى عثر عليها فى محفوظات دير ديفيفو بعد ٧٠ سنة. فبعد زيارته مع أمه وهو فى السادسة من عمره، لم يذهب الى ثاروف مرة أخرى الا وهو فى سن ٢٢. وقد ورث عن أبويه أموالا ضخمة فى وسط آسيا، وكان صبيا ذكيا ذا روح وثابة تريد أن تعرف كل شئ خصوصا غوامض اللاهوت. وكان اساتذته يضيقون ذرعا بأسئلته المحيرة. وحين انهى دراسته فى جامعة كازان، حصل على وظيفة ناظر مدرسه أبتدائية. وبالنسبة للنظام البيروقراطى رفضوا الأعتراف به كمخترع، فصار له أعداء كثيرين- والمتاعب الناجمة عن هذا سببي له حالة أنهيار فى القيم، تبعها مرض عصبى أشل ساقيه فلزم الفراش وهو فى حالة يأس. وقرر أن يذهب الى صاروف ليسأل الشيخ الذى لم يكن قد رآه منذ طفولته، ولما لم يجد القديس بالدير أمر خدمه أن يحملوه الى الغابة.. ورأى موتوفيلوف الأب سيرافيم عن بعد جالسا تحت شجرة صنوبر وحوله بعض الزوار، وعندما سأله القديس نفس السؤال الذى وجهه الى مانتروف من قبل: "هل لك ايمان فى الرب يسوع المسيح، وهل تعتقد أنه فى أيامنا هذه كما فى القديم يمكنه أن يشفى كل الطالبين اليه؟" فأجاب موتوفيلوف انه يؤمن فعلا بهذا، فقال الشيخ: "ان كنت تؤمن بقلب ثابت راسخ، فأنت قد شفيت هيا قم" ولكن نيكولاوس تردد شاعرا بالالم. فأمسك القديس بيده وأقامه برفق وجعله يمشى بضع خطوات، فأحس بقوة غير طبيعية تسرى فى كل كيانه وتحقق فعلا أنه قد شفى وقال له القديس: "ادخر صحتك ككنز ثمين قد أعطى لك" ثم تحول الى غيره. واصبح نيكولاوس بعد ذلك زائرا مستديما للقديس بعد شفائه...

❖ حديث موتوفيلوف مع الأب سيرافيم

فى نوفمبر سنة ١٨٣١ كان لموتوفيلوف حديث هام مع الأب سيرافيم، قبل نياحة الشيخ بثلاثة عشر شهرا. وجرى الحديث فى نفس المكان حيث تمت معجزة الشفاء فى الخلاء تحت شجرة الصنوبر على شاطئ نهر ساروفكا. وهذا نص ما دونه موتوفيلوف:

كان يوم خميس، وكانت السماء، والأرض مكسوة بالثلج الكثير الذى يتساقط الهوينا بالطريقة المعتادة فى روسيا، عندما أستقبلنى الأب سيرافيم فى الغابة وطلب منى أن اجلس على جزع شجرة قطعت من زمن قريب، وجلس هو بالقرب منى. وبدأ الحديث بقوله: "لقد كشف لى الرب انك منذ

الطفولية كنت طواقا لمعرفة الغاية الحقيقية للحياة المسيحية" "فقلت له: والحق أقول اننى منذ عامى الأثنى عشر، كنت مشغولا بهذه القضية وقد طرحت السؤال مرات كثيرة دون ان أحظى بجواب مرض" وتابع الأب حديثه قائلا: "لقد وجهت السؤال الى كثيرين حتى الى احبار الكنيسة، ولكنك لم تحصل على اجابة مرضية على الأطلاق. لقد أخبرت انه يجب عليك الذهاب الى الكنيسه، تسلك حسب وصايا المسيح، تكون رحيما سخيا... الخ، والبعض أظهر امتعاضا بما أسموه فضول ذائد وها انا الآن خادم الله الحقير سيرافيم، اريد ان اشرح لك ماهى هذه الغاية.

❖ ان غاية الحياة المسيحية الحقيقية هى اقتناء الروح القدس...

الصلاة، والصوم، وأعمال الخير المقدمة فى اسم المسيح، هى اعمال ممدوحة فى حد ذاتها، ولكنها لا تعتبر هدفا...انها وسائل، أو يضائع أرضية على الأنسان ان يتاجر فيها ليصنع مكاسب مودعة فى بنك الروح للتوفير.

❖ تطبيق مثل العشر عذارى

يظن البعض ان نقص الزيت فى مصابيح الجاهلات يرجع الى نقص أعمال الفضيلة عبر زمان الحياة هذا ليس صحيحا، لم تنقصهن فضيلة، الم يكن عذارى؟ لقد كان الروح القدس هو الذى ينقصهن (الروح القدس يرمز اليه دائما بالزيت فى الأسار بحسب المفهوم الأرثوذكسى) ان الجاهلات لم يبحثن عن اقتناء الروح القدس،... كن مؤمنات بمجئ العريس، واكملن أعمالا صالحة– وكن الأعمال الصالحة فى حد ذاتها ليست شيئا ان لم تعمل بواسطة المسيح. ان لم تكن الأعمال فى اسم المسيح تكون من المجد الباطل لارضاء غرور الأنسان وتتحول الى شر. ان ما يمنحنا خلاصنا ليست أعمالنا الفاضلة أو كميتها، بل الثمرة التى تحملها– نعمة الروح القدس.

ان الزيت فى مصابيح العذارى الحكيمات اعطاهن فرصة ان ينتظرن حتى مجئ العريس والدخول معه فى حجرة الفرح الأبدى. أما الجاهلات فقد كان عليهن أن يذهبن الى السوق: والسوق يرمز الى حياتنا، وغلق باب الحجرة هو موتنا، أما الزيت فانه نعمة الروح القدس التى تملأ كياننا فتحولنا من حالة الفساد الى حالة عدم فساد تحولنا من حالة الموت الجسدى الى حياة الروح. يحول اصطبل الأوجاع الذى فى داخلنا والمربوطة فيه كل الوحوش الى هيكل لله، الى حجال مقدس حيث نقابل ربنا ومخلصنا وعريس نفوسنا.

❖ توضيح لدور الأعمال

لاحظ ان أى عمل ان لم يكن حبا فى المسيح، لايجلب لنا ثمار الروح القدس، ولا يكون له أجر فى الآخرة ولا نعمة فى هذه الحياة وبهذا المعنى قال الرب: " من لايجمع معى فهو يفرق". ومها يكن من أمر فان العمل الصالح مفيد باستمرار فانه مكتوب: "بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده" (أع ١٠ : ٣٥) ان الرب عندما رأى كرنيليوس قائد المئة يخاف الله ويصنع البر، لم يشأ ان يضيع تعب هذا الأنسان باطلا، فأرسل له معونته الالهية.. ظهر له ملاك فى الصلاة قائلا: اذهب الى سمعان الملقب بطرس وهو يقول لك كلمات الحياة. بهذه الكلمات تخلص أنت وأهل بيتك. وهكذا أتى بطرس وأعطاهم نعمة الروح القدس... ان أقتناء نعمة الروح القدس يجعل ملكوت الله ثابتا فى قلوبنا، وهذه النعمة تقود خطانا الى طريق الغبطة الأبدى. ان الخالق يعطينا الوسائل ولكن تحقيقها متروك للانسان. ولهذا يقول السيد لليهود: "لو كنتم عميانا لما كانت لكم خطيئة ولكن الآن تقولون أننا نبصر فخطيتكم باقية" (يو ٩ : ٤١)

ان الأنسان الذى يشكو ان اعماله كثيرة ومع ذلك لا يحس بثمار روحية..هو انسان يعمل لحساب ذاته وليس لحساب المسيح، ولو أن هذا الأنسان – كما حصل لكرنيليوس– يعرف أن يجعل عمله مرضيا أمام الله، ويكون له ايمان وحب المسيح، فان عمله يحسب عملاً صالحا قادرا ان يوهب الانسان اكليل البر فى الحياة الآخرة.. ويملأه فى هذه الحياة بثمار الروح القدس كما جاء فى الكتاب المقدس: "لأنه ليس بكيل يعطى الله الروح. الآب يحب الأبن وقد دفع كل شئ فى يده" (يو ٣ : ٣٤ ، ٣٥)

نعم ياصديق الرب ان اقتناء الروح القدس، روح الله، الأقنوم الثالث الأقدس، هو الهدف الحقيقى للحياة المسيحية، وما الصلاة والصوم والسهر والصدقة وغيرها من الأعمال الصالحة المعمولة حبا للمسيح غير وسائل.

❖ سؤال عن كيفية اقتناء الروح القدس

عندئذ سألت الأب سيرافيم: بأى معنى تتكلم عن أقتناء الروح القدس؟ اننى لا أفهم جيدا فاجابنى: ان الأقتناء معناه أن تأخذ شيئا ملكا لك، هل تفهم؟ ألا تقول عن أقتناء المال! نفس المعنى بالنسبة لأقتناء الروح القدس. هل تعلم ماذا تعنى كلمة اقتناء بالمعنى البشرى؟ الانسان العادى هدف الحياة عنده هو أقتناء المال أو نوال الألقاب أو المكافآت، أما الأنسان المسيحى فالروح القدس عنده

هو رأس مال أبدى يمكن امتلاكه بوسائل مشابهة لوسائل امتلاك المال. ربنا يسوع المسيح، كلمة الله، يشبه حياتنا بسوق متاجرة، ويدعوا الجميع ان يتاجروا الى ان يجئ مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة– وهذا يعنى اربحوا فى زمانكم، ودبروا أوقاتكم الثمينة جدا لتقبلوا الاله السماوى، تاجروا فى البضائع الأرضية التى هى الأعمال الصالحة المعمولة حبا فى المسيح، التى تؤهلنا لنعمة الروح الكلى قدسه الذى بدونه لا خلاص للانسان. لأن كل نفس تحيا بالروح القدس، وتتنقى مرتفعة ومتلألئة بالثالوث الواحد بحالة فائقة سرية عجيبة.

ان نفوسنا تصبح مسكنا لروح الله الكلى القدرة. ونحن لا نكون أهلا لسكناه الا اذا عرفنا كيف يمكننا ان نقتنيه. وهو الذى يسبق ويهئ نفوسنا وأجسادنا لنكون هيكلا لله الخالق حسب الآية: واسكن فيهم واكون لهم الها ويكونون لى شعبا.

❖ الصلاة وسيلة لاقتناء الروح القدس

ان كل عمل يعمل محبة فى يسوع المسيح، يعطى نعمة الروح القدس– والصلاة هى اسهل الوسائل، واكثرها فاعلية. ويسهل استخدامها فى كل آن: قد تود الذهاب الى الكنيسة ولكن ليس هناك كنيسة او ان خدمة القداس تكون قد أنتهت، وقد تود مساعدة فقير ولكنك لا تجد فقيرا فى طريقك، وقد تود ان تبقى طاهرا ولكن بالنظر الى ضعفك امام مكايد العدو لم تستطيع. اما الصلاة فأنها تصلح لكل آن، وكل انسان يستطع أن يقوم بها: الغنى والفقير، الصحيح والعليل، الصالح والخاطئ. ان قوة الصلاة عظيمة وهى تعطى نعمة الروح القدس اكثر من كل شئ. بواسطة الصلاة نستطيع ان نخاطب الرب الصالح والمحيى.

وواصل الأب سيرافيم حديثه مع موتوفيلوف قائلا: أنت تعتبر أنه امتياز فائق كونك تتحدث مع سيرافيم الحقير، مفترضا انه ليس خاليا من نعمة، فكم بالحرى حين تكلم الله ذاته؟

علينا ان نصلى الى ان يحل الروح القدس علينا، ويعطينا حسب قياس يعرفه هو، ويملأنا من نعمته السمائية، واذا زارنا، علينا ان نتوقف عن الصلاة ونصمت امامه لكى تسمع النفس وتفهم رسالته... لماذا نستمر فى التوسل اليه: هلم تفضل وحل فينا... فى حين انه يكون قد اتى؟ افترض انك دعوتني لزيارتك فى بيتك. وأنا قد وصلت الى البيت، ولكنك تستمر فى دعوتك مكررا لى "من فضلك تعال!" سأفكر بلا شك هكذا: لابد أنه قد تاه عقله اننى هنا، ورغم ذلك يستمر فى دعوتى! هكذا عندما يتعطف الروح القدس ليزورنا علينا ان نتوقف عن الصلاة الصوتية، يجب على النفس أن تكون صامتة تماما لكى تسمع وتفهم رسالته. لأن المعزى يكون آنذاك قد أتى وحل فينا ليخلصنا نحن الذين اسلمنا

له ذواتنا، ودعونا اسمه القدوس كى نقتنيه بكل تواضع ومحبة فى هياكل نفوسنا الجائعة والمتعطشة لمجيئه.

❖ الأعمال الاخرى غير الصلاة

"ان طبيعة حالنا اننا غير صبورين فى الصلاة"، فسأل موتوفيلوف: "بالمتاجرة بأى عمل يعطينا ربح نعمته" ان تعاليم الشيخ تطابق تماما تعاليم بولس الرسول فى رسالته الأولى الى أهل كورنثوس عندما يقول الرسول: "انواع مواهب موجودة ، ولكن الروح واحد.

وأنواع خدم موجودة، ولكن الرب واحد.

وأنواع أعمال موجودة، ولكن الله واحد.

الذى يعمل الكل فى الكل.

ولكنه لكل واحد يعطى اظهار الروح للمنفعة" (١كو ١٢ : ٤ – ٧)

وأضاف الأب: تاجر بفضائلك الروحية، انشر مواهب النعمة لكل من يسألها منك. الشمعة المضيئة تنير شموعا اخرى دون أن تفقد هى ضوءها، الغنى الأرضى عندما يوزع ينقص أما الغنى السمائى فانه عندما يوزع يزداد.

ثم سأله موتوفيلوف: بأى طريقة أستطيع أن أعرف أننى فى حالة نعمة الروح القدس؟

فأجاب الأب: هذا سهل جدا يا صديق الرب: الم يقل السيد: كل شئ ممكن للمؤمن. الرسل كانوا مؤمنين وكانوا يعلمون دائما اذا كان روح الله فيهم أم لا، وعندما كانوا يرون الروح كانوا يؤكدون أن أعمالهم صالحة ومقبولة لدى الله.

وهذا يفسر ما كانوا يكتبونه فى أعمالهم "لأنه رأى الروح القدس ونحن" وهم أستنادا الى هذه الحقيقة الأساسية فرضوا أعمالهم كأعمال أساسية لكل المؤمنين.

أن الرسل القديسين كانوا يعرفون بطريقة حسية وجود روح الله. ألا ترى ياصديق الرب كم هذا سهل.

ولكننى لا أفهم جيدا كيف أكون مشمولا تماما بالروح القدس وكيف أستطيع أن اكون الشاهد على ذلك؟

– لقد قلت لك هذا سهل جدا، وحدثتك كيف يكون الناس فى نعمة الروح القدس. ماذا يلزمك بعد:

❖ هل يمكن لأحد أن يبصر الله؟

قال موتوفيلوف: أبى.. تكلمت عن نوال الروح القدس كغاية للحياة المسيحية ولكن كيف أشعر به وأدركه، ان الأفعال مرئية اما الروح القدس فغير مرئى، كيف أعرف أن كان فى أم لا؟

لقد وضع موتوفيلوف –دون أن يعرف– سؤالا لاهوتيا له أهميته القصوى. لقد أثير هذا السؤال مرات عديدة. وكانت أجابات النساك الشرقيين دائما بالإيجاب. يمكننا ان نعرف وجود الله فى الداخل. فقد رأوا اللاهوت كنور غير مخلوق، وقد كتب سيمون (اللاهوت الجديد) أب دير القديس ماماس فى القسطنطينية فى بداية القرن الحادى عشر.

"الله هو نور وهو يمزج ضياءه بالذين ثبتوا وأتحدوا به بحسب قياس كمالهم... الانسان يجمع ذاته ويوحدها بالله روحيا وجسديا لأن نفسه لا تنفصل عن روحه ولا جسده عن نفسه. الله يدخل فى شركة كلية مع الأنسان الواحد كله الذى هو اله بالطبيعة يتحدث مع الذين صاروا آلهة بالنعمة... الروح القدس يصبح داخلهم كما أخبرتهم الأسفار المقدسة عن ملكوت الله.

الروح القدس هو نور هكذا قال الشيخ سيرافيم الى موتوفيلوف، ولكن موتوفيلوف كان يبدو أنه غير مقتنع .. فقال: اننى أريد أن أفهم بأكثر وضوح..

❖ التجلى:

القديس سيرافيم: اسمع يا صديقى: الآن كلينا فى هذه اللحظة موجودون فى الروح القدس. لماذا لا تنظر الى؟

موتوفيلوف: أنا لم أعد أستطيع أن أنظر اليك ياأبى فان عينيك يشع منهما نور كالبرق الخاطف وقد صار وجهك يتوهج أكثر من الشمس، وقد أنبهرت عيناى من النظر اليك.

القديس سيرافيم: لا ترتعب، فأنت أيضا فى هذه اللحظة قد صرت مضيئا كما صار لى، فقد أصبحت أنت ايضا الآن على ملء روح الله والا ما كنت تستطيع ان ترانى بما رأيتنى فيه"

وانحنى نحوى وأسر فى أذنى "اشكر الرب على صلاحه اللانهائى نحونا، وهوذا أنت ترى انى لم أعمل شيئا قط من ذلك حتى ولا أشارة الصليب، ولكن كان يكفى أنى ناديت الرب مصليا بفكرى ومن قلبى قائلا "يارب أجعله مستحقا أن يرى بعينيه حلول روحك الذى تنعم به على خدامك عندما يتراءى لك أن تظهر لهم فى بهاء مجدك العجيب وهكذا ترى ياصديقى أن الله استجاب فى الحال لصلاة سيرافيم الحقير، علما بأنه حتى الأباء فى الصحارى لم توهب لهم دائما هذه العطية التى بها أستعلن

صلاحه. ان نعمة الله كأم مملؤة حبا وحنانا نحو أولادها، رأت أن تعزى قلبك المضطرب بشفاعة أم الله... فلماذا أراك ياصديقى لاتريد أن تحدق فى وجهى؟ انظر فى بحرية فالرب معنا الآن.

فلما شجعنى بهذه الكلمات تطلعت اليه فغمرنى خوف مقدس... تصور أنك رفعت عينيك فجأة الى قرص الشمس الوهاج فى عز الظهر لتحدق فى وجه انسان داخل هذا القرص وهو يتحدث اليك.

كنت الحظ تحرك شفتيه وملامح عينيه وأسمع صوته وأحس بيديه وهو ماسك كتفى، ولكننى لم أستطع أن أرى يديه ولا باقى جسمه، فالكل غاب عن بصرى ماعدا النور المتوهج الذى يحيط به والذى يشع منه فيسقط على الثلج الذى يغطى الأرض من حوله ويضئ قطع الثلج المتساقط علينا من السماء.

- القديس سيرافيم: بماذا تحس؟
- موتوفيلوف: بسعادة تفوق الوصف.
- القديس سيرافيم: أى سعادة؟ حدد بالضبط.
- موتوفيلوف: أشعر بهدؤ وسكينة وسلام فى نفسى لا أستطيع أن أجد كلمة تعبر عنها.
- القديس سيرافيم: اسمع ياصديقى: هذا هو سلام المسيح الذى وعد به: سلامى أعطيكم سلامى أترك لكم. السلام الذى لا يستطيع العالم أن يعطيه، السلام الذى يفوق كل عقل، ولكن بماذا تشعر أيضا.
- موتوفيلوف: بسرور لاحد له داخل قلبى.
- القدس سيرافيم: حينما يأتى الروح القدس ويحل على إنسان ويحيط بملئ وجوده تفيض النفس بفرح لا ينطق به لأن الروح يملئ كل ما يلمسه السرور. فاذا كان باكورة الفرح السمائى قد ملأ قلبك بهذه اللذة وهذه السعادة فماذا تقول فى الفرح الذى سنناله فى الملكوت الذى ينتظر كل الذين ينتظرونه الآن على الأرض؟!! وأعلم يا صديقى أنك وان كنت قد بكيت أيضا هنا فى غربتك على الأرض فأنظر أى فرح أرسله لك الرب ليعزى قلبك أيضا الآن هنا من أجل ذلك ينبغى أن نجاهد فى الحاضر حتى نبلغ الى قياس قامة ملء المسيح ونتشدد أكثر فأكثر لأنه حينئذ يتحول الفرح الجزئى المؤقت الذى نحسه الآن، ويستعلن فى ملء كماله ليغمر وجودنا كله بمسرات لا ينطق بها ولا يستطيع أحد أن ينزعها منا. ان السيد يعطى السلام الذى تشعر به الآن لجميع الذين يكرهون العلم الذين أختارهم هو، وماذا تشعر أيضا؟
- اننى أشعر بعذوبة لا توصف.

- فتابع الأب سيرافيم كلامه قائلا: ان هذه العذوبة هى التى كتب عنها "من عذوبتك ترويهم"، هذه العذوبة تملأ عروقنا لذة لا توصف وتذيب أفئدتنا وتغمرنا ببهجة يعجز كل لسان فى العالم عن وصفها، وماذا تشعر أيضا؟
- ليس على الأرض شئ اكثر عطرا واذكى رائحة من العطر الذى اشتمه، وليس على الأرض زهرة تعطى هذه الرائحة.
- فتابع الأب سيرافيم كلامه بهدؤ: "أنا أعلم هذا وقد سألت عن قصد بماذا كنت تشعر؟ نعم أن ماتقوله يا صديق الرب صحيح. ليس على الأرض رائحة أذكى من التى تفوح حولنا، لأن هذه هى من الروح القدس وهل على الأرض من ينسبه هذا؟!.. وماذا أيضا ياولدى؟
- اشعر بحرارة لا توصف!!
- كيف ياصديقى ونحن الآن فى غابة فى فصل الشتاء وتحت أرجلنا الثلج، كما أن الثلوج تتساقط، ومازالت تتساقط فوق رؤسنا؟ كيف تشعر بالحرارة وما هى هذه الحرارة؟
- هى نفس الحرارة التى اشعر بها فى فصل الصيف وفى صميم الشمس...

ان هذه الحرارة ليست فى الهواء ولكنها فينا. انه الحرارة التى نطلبها من الله باتضاع فى صلواتنا حين نقول "الهبنى يارب بحراة الروح" لذلك لا يخاف النساك والمتعبدون برد الشتاء لأنهم متسلحون بهذه الحرارة ومتسربلون برداء الروح القدس.

+ ان نعمة الروح كائنة باستمرار فينا لأن الرب يقول: ها ملكوت الله داخلكم.

+ نعمة الروح القدس هى التى تنيرنا وتدفئنا وتملأ الهواء المحيط بنا عطرا، وتملأ قلبنا فرحاً عظيماً.

+ ان الحالة التى نحن فيها الآن هى التى قال عنها الرسول" ان ملكوت الله ليس أكلا وشربا بل هو بر وسلام وفرح بالروح القدس"

+ ان إيماننا لا يستند الى الاراء الحكيمة المقنعة بل الى برهان الروح وقوته.

+ نحن من هؤلاء الذين قال الرب عنهم: "ان قوما من الذين ههنا لا يذوقون الموت قبل أن يروا ملكوت الله آتيا بقوة".

+ هذا هو الفرح العظيم الذى جعلنا الرب أهلا له كما قال القديس مكاريوس المصرى : "الحياة فى غمرة الروح القدس، لقد كنت أنا فى صميم نعمة الروح القدس"

أعتقد الآن انك لست بحاجة بعد هذا ان تسأل كيف يكون الأنسان فى حالة نعمة الروح القدس...

❖ تعاليم القديس سيرافيم الأخيرة لموتوفيلوف

قال الأب: "من الآن لا تعد تسألنى عن كيفية استعلان الروح القدس بصورة مرئية هل سيبقى هذا الاستعلان الواضح فى ذاكرتك؟ اجاب موتوفيلوف انه يخاف ان عدم استحقاقه سيحول دون تذكر كل شئ على صحته...

قال الشيخ: أشعر شعورا مؤكدا أن الله سيساعدك أن تحفظ كل شئ الى الأبد فى ذهنك. والا ما كان قد استجاب الى صلاة الحقير سيرافيم خصوصا و أن استعلان الروح القدس ليس لك وحدك بل للعالم كله عن طريقك. تقوى فى إيمانك، وستكون مفيدا للآخرين"

ان التعاليم الأخيرة النى اعطاها الأب سيرافيم الى موتوفيلوف لها صيغة عملية، قال: "اذكر ان الرب لم يأت الى الأرض ليُخدَم بل ليَخدِم ولكى يعطى حياة لكثيرين. اصنع هكذا. اشرك أى شخص تواق الى الخلاص فى النعمة التى أختبرتها، لا تدفن الفضة التى أودعت اليك مثلما فعل العبد الكسلان... لا شئ مستحيل للمؤمن، اسأل وستجاب كل طلباتك اذا كنت تصلى لمجد الله وفائدة اخوتك. عليك ان تحدد رغباتك الشخصية أيضا ولكن احرص أن لا تسأل الأمور التى ستتركها بسهولة وتمضى. ولكن لا تظن ان بعض المتع بالخيرات الأرضية محرم، الرب يعرف أننا نحتاجها لكى تجعل الطريق الصعب الذى نخوضه أكثر سهولة لنا. أى لا يفصل سعادتنا عن مجده. أنه يريدنا ان نحمل بعضنا أثقال بعض. كل شئ نعمله لأصغر اخوته سيعمل لنا أيضا. كونى راهب وأنت علمانى ليس لها أهمية. (سيمون اللاهوتى الجديد قال نفس الشئ فى القرن الحادى عشر ولكن فى القرن التاسع عشر كان نصا غريبا) ان الرب ينصت لكلا الراهب والإنسان الذى فى فى العالم لو كان كلاهما مؤمنا.

انه ينظر الى كل قلب مملؤ بإيمان حقيقى لكى يرسل فيه روحه، لأن قلب الأنسان قادر أن يحوى ملكوت الله، الروح القدس وملكوت الله واحد.

وختم القديس الشيخ: لقد أخبرتك الآن بكل شئ، امض بسلام، الرب يكون معك وأمه القديسة.. آمين.

أضاف موتوفيلوف: انه أُثناء حديثنا من اللحظة التى أضاء فيها وجه الأب سيرافيم لم تتوقف رؤية النور، شاهدت لمعانه غير الطبيعى بعينى هذه وأنا على استعداد أن اشهد واؤكد ذلك.

❖ شاهد آخر:

هذا وقد قدر لانسان آخر ان يكون شاهدا لوجود الروح القدس عن طريق الأب سيرافيم، وهذا الشاهد هو يوحنا تيشنوف وقد روى كيف عاش فى جو من الغبطة بالكلمات الآتية:

بينما كنت أقرأ يوما فى انجيل يوحنا كلمات المخلص "ان فى بيت أبى منازل كثيرة" أخذنى شوق عظيم لرؤية هذه المنازل السماوية، فقضيت خمسة أيام بلياليها وأنا أصلى دون نوم طالبا من السيد هذه النعمة والمشاهدة.

وقد تحنن السيد برحمته الغزيرة وعزانى وأرانى منازله السماوية حيث شاهدت فى ضياء أبهى من الشمس أنا السائح الأرضى الفقير فى برهة من الغيبة عن حواسى، بالجسد أم خارج الجسد لست أعلم الله يعلم شاهدت جمالا سماويا لا يوصف، فرأيت السابق الأول يوحنا المعمدان والقديس يوحنا الرسول والرسل والقديسين والشهداء وأباءنا الطوباويين أنطونيوس الكبير و سابا وأنفوريوس وغيرهم، وكانوا مشرقين فى عظمة فائقة الوصف، لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم يخطر على بال بشر ولكن أعدها الله للذين يحبونه.

صمت الأب سيرافيم ثم أنحنى قليلا وأغمض عينيه ووضع يده اليمنى على صدره فأخذ وجهه يتغير شيئا فشيئا ويشرق بنور عظيم حتى أصبح من الصعب جدا النظر اليه، وكان وجهه وهيئته ممتلئين بفرح سماوى ونشوة سماوية كأنه ملاك أرضى أو إنسان سماوى. وطوال الوقت الذى ظل صامتا فيه ظهر أنه يخاطب أحدا بلطف ويسمع كلاما بشوق والله وحده يعلم حقيقة ذلك، أما أنا فبرغم عدم أستحقاقى سعدت برؤية الأب سيرافيم فى هذه الحالة المقدسة ونسيت جسدى واجتاحت نفسى نشوة لا توصف، والآن كلما خطر ببالى ذلك أحس بعذوبة فائقة.

وبعد صمت قصير تنهد الأب سيرافيم تنهدا عميقا ممتلئا من الفرح ثم قال لى"آه لو تعلم ما أعظم الفرح وما أبهى العذوبة التى تنتظر النفس المستحقة للسماء، يجب أن نتحمل فى هذه الدنيا الفانية كل تجربة وكل اضطهاد وكل نميمة. وإذا حلت بنا المصائب فعلينا أن نتحمل بكل قوانا لكى لا نحرم من الفرح السماوى الذى أعده الله للذين يحبونه، ففى منازله لا مرض ولا وجع ولا حزن، بل فرح وعذوبة فائقتان وقديسون يتلألأون كالشمس. فأى لسان يستطيع أن يصف هذه العظمة السماوية وجمال وطن الأبرار والغبطة بعد أن عجز بولس الرسول عن ذلك.

إفرح وأنت فى جسدك المائت بفرح الفردوس الذى ذقته.

❖ فى الغابة وحالة الرفعة عن الأرض

اعتاد الأب سيرافيم أن يعود الى كوخه بالغابة بعد صلوات مساء الأحد ويقضى اياما كثيرة من أيام الأسبوع هناك، حيث أن المسافة (٤ ميل) التى تفصله عن الدير كانت فوق عافيته والآلام فى ساقيه بدأت تتعبه مرة أخرى.

فاعتاد أن يتوقف فى منتصف الطريق ويستريح بجوار نبع قد نضب ماءه من زمن. وذات يوم وهو يقترب من هذا النبع رأى أم الله ذاهبة الى النبع، ومدت يدها الى المكان الذى كان كان به النبع، فرأى القديس مياها عذبه بدأت تتدفق من الأرض. ثم التفتت السيدة العذراء الى القديس سيرافيم واخبرته انه ستجرى أشفية كثيرة من هذا النبع. وعلى ذكرى هذا الظهور للعذراء اختار الشيخ هذه البقعة لسكناه الجديد وسماه "الصحراء القريبة" وحفر كهفا فى التجويف الصخرى الذى بدأ منه نبع الماء ليكون مأواه اذا كان الطقس رديئا. وهو أيضا الذى تبنى فكرة بناء خزان للمياه النابعة من النبع ومرات كثيرة تراه وهو يتمايل تحت ثقل مخلاته التى ملأها حجارة من شاطئ نهر ساروفكا لكى يبنى الخزان، وكان الأب بصعوبة يتحرك صاعدا بحموليه هذه الى أعلى التل، أو نازلا من عليه. وقد بنى له محبوه كوخا آخر مثل الذى كان فى بطن الغابة، بالقرب من النبع وبسرعة صار نبع الأب سيرافيم هذا مقصدا لزوار كثيرين، وجرت من مياهه أشفية كثيرة. وأصبح الأب سيرافيم يستقبل زائريه هنا. وليس بعيدا عن حافة الغابة، غرس روضة من العشب كان الشيخ قد سأل ميخائيل فانتروف ان يشتريها لراهبات ديفيفو. وأعتادت الأخوات ان يذهبن هناك لتسوية الحشائش، وهذا ما حدث مرة طبقا لتقرير فى تاريخ دير ديفيفو:

كنا سائرات عبر الروضة، وكان الحشيش أخضر وطويل. كان الأب يسرافيم أمامنا... وتوقف فجأة وقال لنا ان نستمر فى المسير، فأطعنا، ولكن عندما نظرنا الى الخلف بعد ذلك بدافع حب الأستطلاع دهشنا اذ نرى الأب سيرافيم سائرا فى الهواء بارتفاع حوالى قدمين فوق العشب!

ان حادثة الرفعة هذه لم تكن الوحيدة فى حياة القديس، فان تقارير الذين شاهدوا تقول انهم رأوا اكثر، وهذا يثبت أن حالة الرفعة هذه كانت مألوفة لدى القديس وان هناك لحظات كان جسد القديس (الذى من لحم ودم) يفقد وزنه وجاذبيته الى الأرض، ولا تقيم الروح لقوانين الطبيعة وزنا..

❖ اضطهادات

كثيرون هم القديسون الذين فى تشبههم بالرب يسوع المسيح، دخلوا عبر الآلام والمذلات، ومظالم مريعة والقديس سيرافيم كان واحد من هؤلاء: اصوات معادية أرتفت ضده بمجرد أن وصل الى

قمة الكمال. هذه الأصوات جاءت من العلم الخارجى، ومن دير صاروف. وقد سمح الله ان يكون خادمه ضحيه وشايات الكراهية الفظيعة حتى تتحقق كلماته (متى ٥:١١) ان العاديين، والجسد البشرى لم يقدر ان يحتمل جو الأعجاب الذى أحاط بالقديس العظيم. فقد ثار عليه رئيس الدير مرات... وتعرض لأنتقادات الرهبان الاذعة... والعلاقة الخاصة التى كانت تربط القديس سيرافيم بدير ديفيفو جلبت عليه وشايات عند السلطات المدنية اتهمت القديس أنه يخبئ الفتيات الهاربات من الخدمة، ولما كان فى ذاك الزمان نظام الرق، وحالات طغيان عند الاماء، اجروا تفتيشا عند الأخوات بالدير، وحتى فى كوخ الشيخ. واتهم ايضا أنه يأخذ خشب النجارين الى دير ديفيفوكما يعطيه المؤن الخاصة بدير صاروف. لقد وجه اليه اللوم بأنه ادخل قواعد رهبانية جديدة غير مألوفة..

قال القديس: "ان اكون حجر عثرة فى هذا العالم لا يقلقنى على الأطلاق" واكثر من ذلك أنه لم يحاول أن يخفى الحقيقة انه يصب خمرا جديدة فى زقاق جديدة بالنسبة لراهبات ديفيفو.

ولكن لم تكن هذه النتقادات هى التى أحزنت قلب الأب سيرافيم، انما حزن بالأكثر بسبب الناس الذين حاولوا ايذاء بديره المحبوب محاولين اثارة حتى الأخوات ضده.

لقد أكتشف ان هناك شقاقا ومعسكرين قد تكونا فى الدير، وعلى رأس الفريق المعارض راهب صغير من صاروف هو إيفان تخوفيتش مستغلا مركزه ككنسى الدير(مسئول عن كنيسة الدير). لقد قدم نفسه الى الشيخ متظاهرا ان يكون تلميذا له، واكتشف الأب حالا نواياه وخططه المشبوهة ليكون رئيسا للدير بعد نياحة الأب سيرافيم. حاول القديس اولا ان يستميله ويثنيه عن أفكاره، ولكن ضاعت محاولاته كلها ادراج الرياح.

وفى أحد الأيام عندما كان الشيخ جالسا بجوار نبع الماء، رأى ان الماء الذى كان صافيا حتى هذه اللحظة قد أصبح فجأة طينا عكرا، فى تلك اللحظة كان يمر ايفان تخوفيتش فقال الأب سيرافيم بحزن الى اخت صادف وجودها عنده.

"هذا هو الأنسان الذى سوف يتعب الدير ويقلبه" لقد رأى الشيخ مسبقا التغيرات التى ستحدث فى ديفيفو بعد نياحته، والمتاعب التى ستقسم الأخوات، وتملك على قلبه حزن عميق. ولكى يحمى الراهبات من تأثير ايفان، اوصى الشيخ صديقه المخلص موتوفيلوف لكى يرعى شئون الدير الصغير بعد نياحته، وهذا قد أتمه بكل أمانة بعد أنتقال القديس من هذا العالم ولمدة ١٠ سنوات.

❖ الظهور الثانى عشر لوالدة الاله

كلما جلب الناس متاعب للقديس سيرافيم، كلما بعثت السماء بنورها اليه. وقبل عيد البشارة بيومين (عام١٨٣١) تلقى اشارة من السماء بأن يعد نفسه لإستقبال ملكة السماء. وقد تم هذا الأستقبال ليلة ٢٥ مارس، ولكى يمكن أحدى بناته فى الروح ان تشارك فى هذا الفرح– وهى الأم ايوبركسيا– التى كانت تخوض تجارب عظيمة فى حياتها الروحية فى ذاك الوقت، دعاها الأب سيرافيم أن تأتى اليه فى المساء. وقد كتبت فى وقائع الدير تفاصيل هذه الرؤيا التى حظيت بها بالمشاركة مع الأب: آه لو تعلمين النعمة التى منحت لنا اليوم! هكذا قال لها الأب سيرافيم حين وصولها وبعد ذلك بدأ يصلى وسألها أن تصلى معه. لم تذكر الأم ايوبراكسيا كم من الوقت أستغرقت هذه الصلاة ولكنها ذكرت انه بعد دقيقة سمعت صوتا كالريح وتراتيل آتية من السماء، بعد ذلك رأت نورا باهرا، ورائحة عطرة ملأت الهواء. وانتابها خوف عندما رأت الأب سيرافيم يمد يده لشخص ما وصرخ مبتهجا: اهلا والدة الأله، العذراء غير الدنسة، حينئذ رأت ملاكين سابقين لرؤية ملكة السماء، والقديس يوحنا المعمدان، والقديس يوحنا الرسول، والأثنى عشر العذارى الشهيدات، يكونون معا الحاشية التى تحيط بوالدة الأله، ونورا كنور الوف الشموع قد ملأ القلاية التى بدت كأنها متسعة وقد اختفت الحوائط واصبح الضوء باهرا شديدا لدرجة تفوق لمعان الشمس ولم أحتملها بعد، وسقطت الراهبة على الأرض وهى فى حالة ذهول. وسمعت والدة الأله– كما من بعيد– وهى تتحدث مع الأب سيرافيم كما مع صديق، ولكنها لم تعى ما قالاه. الكلمات الوحيدة التى استطاعت أن تميزها هى التى قالتها العذراء للشيخ" حالا يا صديقى تكون معنا". ثم أقامت العذراء الراهبة وعرفتها بالعذارى الشهيدات الائى تألمن من أجل محبة ابنها وقالت لها وهى تمس شجون نفسها "ان الأستشاد يمكن ايضا ان يكون داخليا حين تجرح قلوب المسيحيين التابعين اثر خطوات الرب بالحب الألهى دون أن تمس اجسادهم"

وعندما غابت الرؤيا اخبرت الأم ايوبكسيا الأب سيرافيم انها نادمة لانها لم تطلب شفاعة والدة الاله عند ابنها. ولكن الأب عزاها بقوله انه طوال الأربع ساعات التى استغرقتها الرؤيا كان يتوسل من اجل جميع الأخوات، وجميع الذين يطيعوننى (أى يطيعون الأب سيرافيم) ويحفظون كلامى "واضاف الأب سيرافيم" هذه هى المرة الثانية عشر التى تظهر لى فيها العذراء القديسة، وفى هذه المرة أراد الرب ان تشتركى معى فى هذه الرؤيا، لذلك اذهبى بسلام.

ان منظر والدة الاله محاطة بنور سماوى ويصاحبها يوحنا المعمدان ويوحنا الرسول وملائكة والعذارى الشهيدات هو منظر الكنيسة المنتصرة الممجدة باكورة ملكوت السماوات الذى ينتظر

القديس سيرافيم. ان التى حملت ملك المجد فى جسدها والروح القدس حل عليها يوم البشارة بعثت وسط حياة أبدية الى خادمها الحقير الذى كانت حياته رحلة طويلة من الألم ولكنها ايضا رحلة مجيدة نحو الملكوت المنتظر الموعود به.

❖ الأيام الاخيرة:

"أننى سأرحل، سأترككم حالا" هكذا كان يقول الأب سيرافيم لزواره الذين أتوا ليروه أواخر عام ١٨٣٢، يا للضيقات يا للشدائد الكبرى التى تنتظركم ولكن لا داعى للخوف، عندما ترون الغم قادما أعدوا أمتعتكم. أستودعكم فى يدي الرب وامه القديسة.

كان وجهه يضئ باستمرار ويمتلئ نورا كملاك. قال: "ياللفرح والبهجة التى تنتظر النفس عندما يرسل الله ملاكه لكى يأخذها.".

لقد بلغ الآن ٧٣ سنة وكانت صحته فى اضمحلال ظاهر. كانوا يسمعونه يقول "ان جسدى يبدو كما لو كان قد مات فعلا، ولكن نفسى صغيرة كطفل ولد حديثا" .

عندما ودع صديقه الأب تيون قال الأب سيرافيم "ابذر البذار التى أعطاك الله اياها فى كل وقت وفى كل مكان ابذرها على أرض جيدة، ابذرها على الرمال، ابذرها على الصخور، ابذرها على الطريق، ابذرها بين الأشواك ربما تفرخ البراعم وتحمل ثمارا" .

فكرة الوزنات والأثمار لم تفارقه على الأطلاق وكان ملهمه ومرشده طوال فترة حياته الى يوم مماته، وكخادم صالح أمين هو مستعد الآن أن يدخل فى فرح الرب الهه.

قبل نياحته بوقت قصير أستدعى اب أعتراف دير ديفيفو للراهبات وسلمه مسئولية الدير، وعندما ودع بناته بالروح قال لهن "عندما لا أكون معكن تعالوا الى قبرى بأستمرار وأسكبن كل آلامكن وأتعابكن، تحدثن معى كما لو كنت مازلت حيا لأنى سأكون معكن دائما.

أحب الأب سيرافيم أن يفارق البشرية بشمعة مضيئة، مرة امسك شمعة ورفعها وقال لأحد الرهبان "أطفئها انفخ فيها، فنفخ فيها الراهب وانطفأت الشمعة فقال "ستنطفئ حياتى سريعا مثل هذا" فحزن الراهب وتأثر فعزاه الشيخ قائلا "هذا ليس وقت الحزن يا صديقى ولكنه وقت الفرح" وعمل الأب سيرافيم استعداداته الأخيرة، كتب خطابات ، أعطى نصائح، أوصاهم أن يضعوا أيقونة القديس سرجيوس على صدره عندما يضعونه فى النعش، وهى صورة مرسومة للقديس لحظة ظهور أم الله له، وقد أفصح عن المكان الذى يرغب أن يدفن فيه بحجة كاتدرائية والدة الأله.

وفى أول يوم من أيام سنة ١٨٧٧ كان يوم أحد فذهب الى الكنيسة الملحقة بالمصحة. تلك الكنيسة التى احبها وقبل جميع الأيقونات واحدة فواحدة، الأمر الذى لم يفعله من قبل، وتناول من الأسرار المقدسة وودع جميع الأخوة الذين كانوا هناك، وفى المساء سمعه الأخ بولس الذى كان يسكن فى القلاية المجاورة، وهو يرتل تسابيح القيامة.

ونحو الساعة السادسة صباح اليوم التالى عندما كان الأخ بولس فى طريقه لحضور القداس اشتم رائحة دخان خارج من باب قلاية الأب سيرافيم، قرع ولكن لم يرد أحد، حينئذ أحضر الأخوه الذين كانوا فى فناء الدير فى طريقهم الى الكنيسة، فتحوا الباب ظانين ان الأب سيرافيم قد خرج الى الصحراء، تاركا الشموع تحترق، الأمر الذى حدث كثيرا من قبل. كان الظلام باقى فى ذلك الصباح من الشتاء، وفى الظلام لم يقدر الرهبان أولا ان يروا القديس سيرافيم، ولكن بعد أن احضروا ضوءا رأوه راكعا أمام أيقونة والدة الله التى يسميها فرح الأفراح، يداه مضمومتان كالصليب على صدره وعيناه مغلقتان، كتاب مقدس مفتوح أمامه قد أحترقت جوانبه وبضع صفحات مازالت أطرافها تدخن، أسرعوا ليحضروا ثلوجا ليطفئوا النار، وبالنسبة للأب سيرافيم كانوا يظنون أنه نائم، متعب من القراءة والسهر لأن جسمه كان مازال دافئا، ولكنهم بعدما حاولوا إيقاظه وجدوا أن روح القديس قد فارقت الجسد الذى حارب ضعفاته وهزمها حتى آخر لحظة، يحققوا أيضا أن النار كانت تحقيقا لنبوة الشيخ، لقد قال بأن نياحته ستعلن بنار، وحيث أنه لم يحدث أى تلف، فلم تكن سوى العلامة التى سبق القديس وأخبر بها.

وضعوا جسد القديس فى كفن من خشب البلوط كان قد أعده من قبل، وحملوه الى الكاتدرائية، وأنتشر خبر نياحته المؤسف بسرعة، وبصعوبة استطاعت الكاتدرائية أن تستوعب الأعداد الضخمة التى وفدت من حدب وصوب.

ولمدة ثمانية ساعات استمر جسد القديس معروضا فى كفن مفتوح حتى يتمكن كل واحد من القاء النظرة الأخيرة عليه.

سمع أنه فى يوم ٢ يناير رأى أحد المتوحدين نورا باهرا فى السماء وقال لتلاميذه "هذه نفس الأب سيرافيم صاعدة الى السماء"

❖ اعلان قداسة الأب سيرافيم كنسيا:

سبعون عاما مضت منذ نياحة الأب سيرافيم ولكن ذكراه بقيت حيه، فان تدفق الزوار وعدد المعجزات فى تذايد مستمر، وقد فتح المجمع المقدس رسميا سجلا لقيد وتقصى الحقائق عن هذا

القديس ومعجزاته واستمر ذلك العمل ستة سنوات كاملة. أثناء ذاك حصرت ٩٤ حالة شفاء قد أجريت واعترف بها من شهود وأخصائيين دون أحصاء وقائع الدير العديدة ومئات الخطابات المنهالة.

وتحت ضغط الأمبراطور نيقولاوس الثانى، الذى بعد دراسة الحقائق أراد الأسراع فى تطويب القديس، أخرجت عظامه لتكرم، وأشهرت قداسته، واعترف به كقديس فى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

فى١٩ يولية سنة ١٩٠٣اعلن الجرس الكبير لكاتدرائية دير صاروف لجماهير المؤمنين عن خدمة القداس الذى سيكرم فيه القديس لأول مرة كقديس. ولم تمتلئ الكاتدرائية وحدها بل كل الأماكن المجاورة كانت غاصة بالجماهير وكل واحد كان يمسك شمعة مضيئة، وكانت هذه الألوف من الفتائل الملتهبة تكون شعلة واحدة صاعدة الى السماء.

ووضع النعش فى وعاء رخامى، وتمثال فضى لكاروب على كل ركن من أركانه الأربعة، واستمرت المعجزات أثناء الخدمة وفى الأيام التى بعدها.

وهكذا سيرافيم الحقير، الذى كان يدعو نفسه بالخادم الحقير لوالدة الأله، أعلن فى تلك السنة الخالدة كأحد قديسى الكنيسة الروسية العظماء.

+++